التوراة العبرانية -القصة الكاملة

فراس السواح

التوراة العبرانية، هو الكتاب المقدس عند اليهود، ويشكل القسم الأول من الكتاب المقدس المسيحي تحت اسم "العهد القديم". ويؤمن كلا الطرفين بأن أسفار هذا الكتاب قد دونت بإلهام من روح الله، على الرغم من أن يد البشر هي التي خطَّته.

والتوراة أشبه بمكتبة منها بكتاب. فهي مجموعة من الكتب عكف على تدوينها محررون مختلفون وعلى فترات زمنية متباعدة، ولكن فكرة واحدة تنتظمها جميعاً، وهي علاقة الإله يهوه بشعب إسرائيل الذي اختاره شعباً خاصاً له، وسار إلى جانبه عبر جميع مراحل تاريخه. أما عن زمن تدوين هذه الكتب فأمر خلافي بين علماء التوراة، ولكن الرأي الأكثر قبولاً لدى معظمهم اليوم هو أنها قد دوِّنت بعد عودة سبي يهوذا من بابل، وعلى مدى قرنين أو ثلاثة قرون، وذلك من أواسط القرن الخامس قبل الميلاد إلى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. وبما أن التاريخ الذي تكتبه التوراة لشعب إسرائيل القديم ينتهي مع تدوين سفر نحميا، وأن آخر حدث في هذا السفر هو سفر نحميا إلى البلاط الفارسي عام 433ق.م، فإن المحررين الذين عكفوا على رواية تاريخ بني إسرائيل، كانوا يقصّون عن أحداث معظمها مغرق في القدم وتفصلهم عنها قرون متطاولة. وهذا ما يلقي اليوم ظلالاً من الشك على مصداقية الرواية التوراتية، التي دُوّنت من وجهة نظر دينية، وعلى قيمتها التاريخية.

لقد وُلدت الوحدات الأساسية للرواية التوراتية كلٌّ على حدة، وتم إنتاجها من قِبل محررين مختلفين ومتباعدين زمنياً؛ ثم جاءت عملية التنسيق الأخيرة لتجمع بينها في رواية مطردة، ومن خلال منظور إيديولوجي و كرونولوجي مفروض عليها من خارجها. وقد استخدم كل محرر، أو مجموعة محررين، مصادر وموروثات متباينة المنشأ: من قصص شعبي، وموروثات متداولة شفهياً، إضافة إلى مصادر مكتوبة أشاروا إليها في مواضع مختلفة من النص، لا نعرف منها سوى عناوينها، ولا نعرف شيئاً عن مصداقيتها التاريخية، ولا عن الطريقة التي استفادوا بها منها. وهذا ثِبتٌ بعناوينها والمواضع التي وردت فيها الإشارة إليها:

1- كتاب حروب الرب: (سفر العدد 21: 14).

2- سفر ياشر: (سفر يشوع 10: 13 و صموئيل الثاني 1: 18).

3- سفر أمور سليمان: (سفر الملوك الأول 11: 41).

4- سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا: (سفر الملوك الأول 14: 19 و 15: 7).

5- سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل: (سفر الملوك الثاني 1: 18 و 14: 28).

6- أخبار صموئيل الرائي: (سفر أخبار الأيام الأول 29: 29).

7- أخبار ناثان النبي: (سفر أخبار الأيام الثاني 9: 29).

8- أخبار شمعيا النبي وعِدّو الرائي: (سفر أخبار الأيام الثاني 12: 15).

9- أخبار ياهو بن حناني: (سفر أخبار الأيام الثاني 20: 34).

تدعى الكتب المؤلِّفة للتوراة بالأسفار، مفردها سِفْر: ويعني في الأصل دَرْج أو لفافة الورق، لأن كل كتاب كان يدون على صحيفة طويلة من الورق ثم تُدرج وتحفظ إلى جانب الصحف المدروجة الأخرى. وتتوزع هذه الأسفار على أربع مجموعات رئيسة هي:

1- الأسفار الخمسة، أو الـ "Pentateuch" باللغة اليونانية. وتدعى أيضاً بأسفار موسى الخمسة، لأن الأسطورة تعزو إلى موسى نفسه أصولها الأولى. وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، وتثنية الاشتراع. تنقسم موضوعات سفر التكوين إلى قسمين: في القسم الأول يقص المحرر عن خلق العالم وخلق نباتات الأرض وكائناتها الحية ثم خلق الإنسان، وعن الأجيال الأولى للبشرية، وعن الطوفان الكبير الذي أفناها، ثم عن عروق البشر التي تسلسلت من أولاد نوح الثلاثة؛ وفي القسم الثاني يركز على سيرة أسرة واحدة فقط هي أسرة الأب الأول إبراهيم، وأولاده وأحفاده وصولاً إلى يوسف الذي رحل إلى مصر واستقدم إليه أباه اسحق وإخوته الأحد عشر، حيث تكاثروا هناك ثم وقعوا تحت نير العبودية بعد وفاة يوسف.

في سفر الخروج، وسفر العدد، واللاويين، وتثنية الاشتراع، يقص المحرر عن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وإنقاذهم من العبودية، وإعطائهم الشريعة التي تلقاها من الرب، والسير بهم إلى الأرض التي وعد الرب إبراهيم أن يعطيها لنسله.

2- الأسفار التاريخية: وتحكي قصة بني إسرائيل منذ دخول أرض كنعان حتى العودة من السبي البابلي، وهي:

- سفر يشوع: ويحكي قصة الاقتحام العسكري لفلسطين، أو بلاد كنعان كما يدعوها النص التوراتي، وذلك بقيادة يشوع بن نون خليفة موسى، وكيف وزع يشوع الأراضي المكتسبة على القبائل الإسرائيلية الاثني عشر. ويُفترض أن أحداثه قد تمت في آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

- سفر القضاة: ويغطي أحداثاً جرت على مدى قرنين من الزمان فيما بين عام 1200ق.م و 1030ق.م. وقد عاش بنو إسرائيل خلال هذه الفترة دون سلطة مركزية تجمعهم، وكانوا موضع اضطهادٍ وتعدياتٍ من قبل ممالك الفلسطينيين المجاورة لهم، وممالك شرقي الأردن.

- سفر صموئيل الأول: ويحكي قصة صعود الملك شاؤل وتأسيسه لأول سلطة مركزية للقبائل الإسرائيلية، وحروبه مع أعداء بني إسرائيل حتى مقتله في آخر معركة له مع الفلسطينيين. ومن المفترض أن شاؤل قد حكم من عام 1030ق.م إلى عام 1009ق.م.

- سفر صموئيل الثاني: ويقص عن عصر الملك داود الذي بدأ حياته العامة كحامل لسلاح الملك شاؤل، وكيف شق طريقه في الجيش والحياة العامة وصولاً إلى كرسي الملك، وكيف أسس بعد ذلك لمُلك مستقر، ووسع حدود ممتلكاته التي امتدت من حدود مصر إلى نهر الفرات. ومن المفترض أن داود قد حكم من 1009ق.م إلى 969ق.م

- سفر الملوك الأول: ويقص عن العصر الذهبي للملكة الموحدة لكل إسرائيل، إبان فترة سليمان بن داود، وعن حكمته وثرائه وأعماله وسلطته على كل من حوله من الممالك، وبنائه لبيت الرب في العاصمة أورشليم، ومنجزاته العمرانية الأخرى، ثم وفاته وانقسام مملكته إلى مملكة شمالية تدعى إسرائيل (أو السامرة فيما بعد)، ومملكة جنوبية تدعى يهوذا عاصمتها أورشليم. ومن المفترض أن سليمان قد حكم من 969ق.م إلى عام 931ق.م.

- سفر الملوك الثاني: ويتناول الأحداث التي جرت في المملكتين، ودورهما في الصراعات الإقليمية، وصولاً إلى نهاية مملكة إسرائيل وتدمير عاصمتها السامرة من قبل الآشوريين عام 721ق.م، ثم نهاية مملكة يهوذا بعد ذلك بنحو قرن ونصف، وتدمير عاصمتها أورشليم على يد الكلدان البابليين عام 587ق.م. وقد أعقب كلا التدميرين سبي واسع النطاق لسكان المملكتين باتجاه مناطق بلاد الرافدين.

- سفرا أخبار الأيام الأول والثاني: ويعيد هذان السفران (اللذان كتبا في وقت متأخر) سرد الأحداث الواردة في أسفار صموئيل والملوك من منظور سياسي و أيديولوجي مختلف.

- سفرا عزرا و نحميا: ويقصان عن عودة سبي يهوذا من بلاد بابل وإعادتهم لبناء مدينة أورشليم المهدمة وبناء هيكل سليمان القديم بشكل أكثر تواضعاً. وعلى هذا الشكل تنتهي الرواية التوراتية نحو أواسط القرن الخامس قبل الميلاد.

- سفر استير: ويحكي قصة فتاة يهودية تدعى بهذا الاسم، تزوجها الملك الفارسي، وقد أفادت من مكانتها لديه وحمت شعبها من الإبادة التي كان يخطط لها الوزير هامان.

3- أسفار الحكمة: مجموعة أسفار يغلب عليها التأمل الفلسفي، وهي: راعوث، ويونان، وأيوب، والأمثال، والمزامير، ونشيد الإنشاد.

4- أسفار الأنبياء: وتحكي عن حياة وتعاليم ونبوءات عدد من أنبياء بني إسرائيل، وهم: إشعيا، وإرميا، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي.

ويبدو أن هذه الأسفار الـ 39 التي تؤلف اليوم التوراة العبرانية قد اتخذت وضعاً شبه قانوني منذ القرن الثاني قبل الميلاد، لأن الترجمة اليونانية للتوراة التي قام بها يهود الإسكندرية، والتي اكتملت في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، قد احتوت على هذه الأسفار الـ 39، إضافة إلى عدد قليل آخر من الأسفار دونت أصلاً باللغة اليونانية، وهي: يهوديت، وطوبيا، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، ورسالة إرميا. إلا أن الأصل العبري الذي قامت عليه هذه الترجمة المدعوة بالسبعينية([[1]](#footnote-1)) - Septuagent (ويرمز إليها بالأحرف LXX) مفقود. والترجمات التي بين أيدينا اليوم إلى اللغات الحية بما فيها العربية، تعتمد مخطوطات للتوراة يعود تاريخها إلى القرن التاسع أو العاشر الميلاديين. وهذا ما يقودنا إلى إلقاء نظرة عامة على تاريخ النص التوراتي، وترجماته القديمة المتنوعة التي أعقبت الترجمة السبعينية([[2]](#footnote-2)).

عندما اكتملت الترجمة السبعينية للتوراة في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، على يد عدد متنوع من المترجمين وعبر عقود طويلة متتالية، كانت هذه الفترة تشهد نشاطاً أدبياً يهودياً لا مثيل له في الفترات السابقة، الأمر الذي أدى إلى ظهور أسفار توراتية جديدة كتبها مؤلفون مجهولون ونسبوها إلى شخصيات توراتية بارزة. وعندما شاع تداول هذه الأسفار الجديدة بين اليهود (وبعد ذلك بين المسيحيين)، وذابت الفوارق بين ما هو قانوني وغير قانوني في الأدبيات التوراتية، لا سيما بعد دمار أورشليم على يد الرومان عام 70م، وفقدان السلطة الدينية المركزية، ارتأى عدد من الربانيين اليهود وضع حد لهذه الفوضى، فاجتمعوا في مدينة يمنيا (يبنة القديمة) قرب حيفا، من أجل إقرار قراءة موحدة للأسفار من بين قراءات متعددة، وأيضاً من أجل إقرار الأسفار التي اعتبروها ملهمة من الرب، والأسفار الأخرى الزائفة. وبذلك ظهر إلى الوجود النص الموحد للتوراة العبرانية الذي بين أيدينا اليوم، وعدد أسفاره 39 سفراً، بعد أن استبعد مجمع يمنيا الأسفار الثمانية الزائدة في الترجمة السبعينية التي كتبت أصلاً باليونانية، وغيرها من الأسفار العبرية التي اعتبرت زائفة. ولكن القول بأن نص مجمع يمنيا الموحد هو النص الذي بين أيدينا اليوم، ليس دقيقاً تماماً، وذلك لأننا لا نملك نسخة من ذلك النص من جهة، ومن جهة أخرى لأن النص القانوني الأول كان مكتوباً بالأحرف العبرية الساكنة، وكان تحريكه يعتمد على التقاليد الشفوية المتوارثة. أما النص الحقيقي الذي يشكل أساس الترجمات الحديثة فهو النص الماسوري المحرَّك الذي أنجزه العلماء الماسوريون أثناء الفترة الانتقالية من القرن التاسع إلى القرن العاشر الميلادي، انطلاقاً من النص القانوني لمجمع يمنيا. وكلمة ماسوريين وماسوري مشتقة من ماسوراه التي تعني التقليد أو الموروث، لأن علماء الكتاب في ذلك الوقت قرروا وضع الصيغة التقليدية النهائية لقراءة كتاب التوراة، خوفاً من الاختلاف في القراءات بعد أن صارت اللغة العبرية القديمة في عداد اللغات الميتة، وحلّت محلها لهجات عبرية شعبية كان اليهود يستعملونها في حياتهم اليومية.

نعود الآن إلى موضوع ترجمة الكتاب إلى لغات العالم القديم، فقد كانت الترجمة السبعونية إلى اللغة اليونانية هي أول الترجمات، وقد اعتمدها في البداية يهود الإسكندرية الذين كانوا لا يقرأون العبرية؛ كما اعتمدها المسيحيون الأوائل ومؤلفو الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد. ومعظم المقتبسات التوراتية التي أوردها هؤلاء المؤلفون، مثل النبوءات بخصوص قدوم المسيح وغيرها، مأخوذة عن النص السبعيني. وبذلك فقد شاعت هذه الترجمة بين اليهود المتكلمين باليونانية في بلدان حوض المتوسط وبين المسيحيين؛ وما لبثت الكنيسة الناشئة حتى اعتمدتها نصاً قانونياً للعهد القديم. ولكن عندما أخذ المسيحيون يحاجّون اليهود اعتماداً على النص السبعيني، فقدَ هذا النص جاذبيته عند اليهود، فعمدوا إلى إنجاز ترجمة يونانية بديلة، وهكذا ظهرت إلى الوجود ترجمة Aquila، وذلك نحو منتصف القرن الثاني الميلادي. ويبدو أن هذه الترجمة قد اعتمدت نصاً عبرياً أقرب إلى النص القانوني منه إلى أصل الترجمة السبعينية. وبذلك حلّ نص Aquila محل النص السبعيني لدى اليهود. وبعد ذلك بقليل ظهرت Symmachus التي تميزت بحرية أكثر في التعبير وبأسلوب يوناني أكثر جزالة. وبعدها ظهرت ترجمة Theodotion التي يبدو أن أصلها العبري كان أقرب إلى نص Aquila والنص القانوني منه إلى أصل السبعينية. ونحو منتصف القرن الثالث قام أوريجين الإسكندري بوضع نص مقارن قسمه إلى عدة أعمدة، حيث وضع في العمود الأول النص التقليدي القانوني، وفي العمود الثاني ترجمة Aquila، وفي الثالث ترجمة Symmachus، وفي الرابع ترجمة Theodotion، وفي الأخير النص السبعيني مراجعاً من قبله. وما لبثت هذه المراجعة التي قام بها للنص السبعيني حتى غدت بحد ذاتها ترجمة مستقلة، وتم تداولها على هذا الأساس. وفي هذه الأثناء أيضاً ظهرت أكثر من ترجمة آرامية كانت واحدتها تدعى ترجوم. ويتميز الترجوم بتداخل المتن مع الشروح والتعليقات، الأمر الذي يجعله أقرب إلى عامة اليهود المتكلمين بالآرامية، سواء في فلسطين أم في بقية أنحاء سوريا وبلاد الرافدين. كما ظهرت الترجمة اللاتينية في القرن الخامس الميلادي.

حتى أواسط القرن العشرين كان الاعتقاد سائداً لدى علماء التوراة بأن النص الماسوري المنقط الذي يعود في أصوله إلى نص مجمع يمنْيا، هو أقدم نص مكتوب للتوراة، وأننا لن نعثر في المستقبل على ما هو أقدم منه. ولكن حدث في عام 1948 اكتشاف غيّر مجرى الدراسات التوراتية، حين بدأت الوثائق المعروفة بمخطوطات البحر الميت تظهر تباعاً من كهوف وادي قمران على السفوح الغربية للمرتفعات الفلسطينية المنحدرة نحو البحر الميت. وقد تبين أنها من نتاج فرقة يهودية غير أرثوذوكسية (ربما كانت الفرقة الأسينية) كانت تقيم في دير في هذه البوادي البعيدة عن المراكز الحضرية. وقد تم العثور بين هذه المخطوطات على نصوص كاملة لعدد لا بأس به من أسفار التوراة، إضافة إلى نصوص منقوصة أو شذرات نصوص من بقية الأسفار. وبما أن مخطوطات قمران تعود بتاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي (تم تدمير دير قمران نحو عام 70م من قبل الرومان)، فإن أقدم مخطوط لكتاب التوراة الآن هو مخطوط قمران الذي يفوق في القدم نص مجمع يمنيا بنحو قرنين من الزمان.

وقد ألقت هذه المخطوطات ضوءاً على أصول الترجمة السبعينية، التي كانت تبدو بين بقية الترجمات اليونانية تنتمي وحدها إلى تقليد مختلف وأصل مستقل. كانت لفافة سفر إشعيا أول ما تم ترميمه ودراسته. وقد تبين أنها تتبع بدقة النص الماسوري حتى في أصغر جزئيات التهجئة، الأمر الذي أكد قِدَم أصل النص الماسوري. إلا أن العثور بعد ذلك على لفافة سفر صموئيل الأول، قد قدم للعلماء مفاجأة، لأنه قدم لنا نصاً يتفق من الترجمة السبعينية كلمة فكلمة تقريباً، الأمر الذي دل على أن جماعة قمران كانت تحتفظ بلفائف تنتمي إلى أكثر من أصل وتقليد، وأن الترجمة السبعينية تمثل فعلاً تقليداً يختلف عن تقليد النص الماسوري. أما عن الأسفار الثمانية الزائدة في الترجمة السبعينية، فقد قيض لها الاستمرار في النص المقدس للعهد القديم عندما تبنت الكنيسة الكاثوليكية النص الماسوري وأضافت إليه هذه الأسفار التي دونت أصلاً باللغة اليونانية، واعتبرتها أسفاراً قانونية من الدرجة الثانية. ولكن حركة الإصلاح البروتستانتي التي انطلقت في القرن السادس عشر عادت إلى التقليد القديم، والتزمت في عهدها القديم الأسفار العبرية فقط والبالغ عددها 39 سفراً.

أثناء الفترة التي شهدت عملية تنميط وتوحيد التوراة العبرانية في نص قانوني معتمد، لم يكن النشاط الأدبي الديني قد خف، ولم تتوقف عملية إنتاج الأسفار غير القانونية، التي ندرجها اليوم تحت مصطلح أو عنوان Pseudepigrpha، أي الكتابات الزائفة، والتي نستطيع تمييزها عن بقية الأجناس الأدبية اليهودية بأنها تعالج موضوعات وأفكار شبيهة بموضوعات وأفكار الكتاب المقدس القانوني، وتدّعي مثلما تدّعي الأسفار القانونية بأنها تحتوي على رسالة الرب وكلمته إلى الناس. ولكنها من ناحية أخرى تنفرد بالتركيز على أفكار وموضوعات لم تركز عليها الأسفار القانونية، وأهمها: معنى الخطيئة، وأصل الشر والشيطان، وتنزيه الخالق، وقدوم المسيح، وبعث الأجساد في اليوم الأخير، والثواب والعقاب الآخرويين، والجنة والنار. وجميع هذه الأسفار غير القانونية دوّن أثناء الفترة من 200ق.م إلى 200م، والوثائق التي تعود إلى ما بعد هذا التاريخ ترجع في أصولها إلى نسخ مفقودة من تلك الفترة. بعض هذه النصوص وصلنا عن طريق النُسّاخ، وبعضها فُقِد تماماً، وبعضها تم العثور عليه في القرنين الماضيين، وذلك **بعون** قوائم بها وضعها مؤلفون قدماء. وقد مارست هذه النصوص، على الرغم من بقائها على هامش النص الرسمي، تأثيراً كبيراً في الفكر الرباني التلمودي اللاحق، وساهمت في تكوين الديانة اليهودية التي نعرفها اليوم. ولكي أعطي فكرة عن حجم هذا الأدب غير القانوني، أشير على أنه قد بلغ في أحدث ترجمة إنكليزية له([[3]](#footnote-3)) عدداً من الصفحات لا يقل عن عدد صفحات التوراة الرسمية.

تاريخ المصحف الشريف

يؤمن المسلمون بأن القرآن الكريم هو كلام الله أنزله على رسوله الكريم بواسطة الملاك جبريل. وقد استغرق نزول القرآن على النبي مدة اثنتين وعشرين سنة. وكان كلما تلقى شيئاً منه جمع الصحابة في اليوم التالي وقال لهم: إن ربكم يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا. وتروي الأخبار المتواترة عن الصحابة وعن أزواج الرسول أنه كان يعاني من نزول الوحي ألماً شديداً، فيتصبب عرقاً ويتصدع رأسه، وربما أغمي عليه. وكان الوحي ينزل بآية واحدة أو بجملة آيات متتابعات، فيعمد الرسول إلى توجيه كُتّاب الوحي لأن يضعوا الآيات الجديدة في مكانها الصحيح من السياق القرآني.

يتألف القرآن، وفق المصحف الذي أقره الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وهو المصحف المتداول اليوم، من 114 سورة. والسورة تعني القطعة من البناء، فهي والحالة هذه قطعة أو قسم من الأقسام المكونة للقرآن. وقيل أيضاً إن السورة من السُّور، فهي تحيط بآياتها إحاطة السور بأحياء المدينة. وتتميز كل سورة باسم خاص بها يميزها عن بقية السور، مستمد من طبيعتها وأبرز موضوعاتها، فنقول: سورة آل عِمران، أو المائدة، أو يوسف، أو يونس، وما إلى ذلك. وتتألف كل سورة بدورها من عدد من الآيات جرى ترقيمها لسهولة الرجوع إليها. فأقصر السور يتألف من ثلاث آيات فقط، مثل سورة العصر وسورة الكوثر، وأطولها وهي سورة البقرة تحتوي على 286 آية.

والسُّورة تنقسم إلى نوعين: النوع الأول يدعى بالسور المكية، وهي التي نزلت على الرسول وهو في مكة، والنوع الثاني يدعى بالسور المدنية، وهي التي نزلت بعد هجرته إلى المدينة، سواء نزلت بالمدينة يثرب نفسها أو بمكة بعد عام الفتح، أو نزلت أثناء سفر من أسفار الرسول. وتتميز السور المكية بقصر الآيات، والكلام القوي المكثف والمسجوع، واللهجة الخطابية التي يكثر فيها الوعد والوعيد؛ كما تتميز بأطروحاتها الجدلية، و وحدة موضوعاتها التي تدور حول شجب الكفر والشرك بالله، والدعوة إلى عبادة الله الواحد، وقرب يوم القيامة، ومشاهد الآخرة، والملائكة والجن والشياطين، والاستشهاد بأحداث الماضي وأخبار الأمم الغابرة. أما السُّور المدنية، فتتميز بندرة السجع، وطول نفَس الآيات، والخطاب السردي الهادئ، وقلة الجدل، وقلة أخبار الأمم الغابرة ومشاهد القيامة واليوم الآخِر، وظهور التشريع الذي نادراً ما تطرقت إليه السور المكية.

هذه السور كانت تكتب بأمر النبي مفرقة على الرقاع وعظام الأكتاف وعُسب النخل وتحفظ في بيت النبي. أما عن جمعها في كتاب واحد هو المصحف الشريف، فإن الأخبار متضاربة بهذا الشأن. فبعض الأخبار تقول إن الجمع قد تم في حياة الرسول. فقد رُوي عن قتادة قال: "سألت أنس بن مالك من جمع القرآن على عهد النبي؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار، وهم أُبَيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، ونحن ورثناه"([[4]](#footnote-4)). وعن زيد بن ثابت: "كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع"([[5]](#footnote-5)). وعن محمد بن كعب القرظي: "جمع القرآن على عهد رسول الله خمسة من الأنصار هم معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأُبَي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري"([[6]](#footnote-6)). وعن علي بن إبراهيم: "إن النبي أمر بجمع القرآن الذي كان في صحف و حرير و قرطاس في بيته، لكي لا يضيع كما ضُيِّع التوراة و الإنجيل"([[7]](#footnote-7)).

وبعض الأخبار تقول إن الجمع قد تم بعد وفاة الرسول مباشرة، وإن الإمام علي كرم الله وجهه هو من تصدى لهذه المهمة. فيروى عن فقيه البصرة محمد بن سيرين قوله: "لما توفي النبي أقسم عليّ أن لا يرتدي برداء حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل"([[8]](#footnote-8)). ويروى عن ابن المنادي سماعه لرواية تقول إن عليّاً لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي، أقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن؛ فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن، فهو أول مصحف جُمع فيه القرآن من قبله"([[9]](#footnote-9)). ويبدو أن مصحف علي هذا كان مرتباً حسب النزول. يقول السجستاني: "فمنهم من رتبها على النزول، وهو مصحف علي كان أوله سورة اقرأ ثم المدَّثر ثم نون ثم المزَّمل، وهكذا إلى آخر المكي والمدني"([[10]](#footnote-10)).

وبعض الأخبار تقول إن جمع القرآن تم في عهد خلافة أبي بكر بتحريض من عمر بن الخطاب وإشرافه. فقد ورد في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت، قال: أرسل إليّ أبو بكر يوم مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: "إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالمَواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن". قلتُ لعمر: "كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟" فقال عمر: "هذا والله خير". فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رآه عمر". قال زيد: قال أبو بكر: "إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك. وكنتَ تكتب الوحي لرسول الله. فتتبَّع القرآن فاجمعه". فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: "كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله؟". قال: "هو والله خير ٌ". فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب و اللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: «لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ....» حتى خاتمة السورة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر خلال حياته، ثم عند حفصة بنت عمر"([[11]](#footnote-11)).

وبعض الأخبار يعزو إلى عمر في ولايته جمع القرآن. فقد رُوي عن أبي داود من طريق الحسن "أن عمر سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان قُتل يوم اليمامة، فقال: إنّا لله. وأمر بجمع القرآن فكان أول من جمعه في المصحف"([[12]](#footnote-12)). وعن يحيى بن عبد الرحمن حاطب قال: "أراد عمر أن يجمع القرآن، فقام في الناس فقال: "من كان تلقّى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتنا به". وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب. وكان لا يقبل شيئاً من ذلك حتى يُشهد عليه شاهدَيْن. فجاء خزيمة فقال: إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. فقال: وما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ....»([[13]](#footnote-13)). وروى ابن سعد أن أول من جمع القرآن عمر بن الخطاب. ويُروى أن عمر كان يشدد على التزام لهجة قريش في تدوين القرآن. فقد سمع رجلاً يقرأ في الآية 25 من سورة يوسف: "ليسجُنَنَّه عتَّى عِين"، تبديل الحاء إلى عين. فقال له عمر: من أقرأك هذا؟ قال: ابن مسعود. فقال عمر: "حَتَّى حِين". ثم كتب إلى ابن مسعود يقول: "سلام عليك. أما بعد. فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآناً عربياً مبِيناً، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تُقرئهم بلغة هذيل"([[14]](#footnote-14)).

وبعض الأخبار تقول بجمع الخليفة الثالث عثمان بن عفان للقرآن. فقد قال الشعبي: "لم يجمع القرآن أحد من الخلفاء الأربعة إلا عثمان"([[15]](#footnote-15)). وفي رواية ثانية أن عمر توفي قبل أن تكتمل عملية جمع القرآن، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به. وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يُشهد شاهدين([[16]](#footnote-16)). وفي روايات أخرى، فإن عثمان لم يجمع القرآن وإنما أخذ المصحف الذي جُمع تحت إشراف عمر في عهد أبي بكر، وكان محفوظاً في بيت عمر حتى قُتل، فآل إلى ابنته حفصة زوجة الرسول، وهو المعروف بمصحف حفصة. فأرسل إليها عثمان يطلبه من أجل استنساخه على أن يعيده إليها بعد انتهاء المهمة([[17]](#footnote-17)).

ولكن شكوكاً تحوم حول أصل مصحف حفصة، لأن البعض يقول إنه كان نسخة عن مصحف سابق، وأنها تدخلت أثناء نسخه في ترجيح بعض القراءات الخلافية. فعن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت أحد الكُتّاب أن ينسخ لها مصحفاً وقالت له: إذا بلغت هذه الآية (السورة 2 الآية 238) فاكتب: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر، وقوموا لله قانتين"([[18]](#footnote-18)). وصلاة العصر في الآية 238 من سورة البقرة غير موجودة في المصحف العثماني الموحد، حيث ورد: «حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ».

وقيل أيضاً أن أم المؤمنين عائشة كانت تحتفظ بمصحف وردت فيه الآية إياها مثلما وردت في مصحف حفصة([[19]](#footnote-19)).

دعاوى التحريف واختلاف القراءات:

هذا الغموض الذي يحيط بعملية جمع القرآن خلال العقدين اللذين أعقبا وفاة الرسول، يوضح لنا سبب وجود اختلافات في عدد سور القرآن في مصاحف الصحابة، إضافة إلى اختلافات في القراءة. فمصحف عبد الله بن مسعود كان يحتوي على 112 سورة بدل 114 سورة في المصحف العثماني، لأنه ترك المعوَّذتين، أي سورة الفلق "قل أعوذ برب الفلق...". وسورة الناس "قل أعوذ برب الناس" لظنه أنهما ليستا من القرآن. فقد كان يرى النبي يعوذ بهما الحسن والحسين في صغرهما مثلما كان يعوذهما بقوله: "أعوذ بكلمات الله التامة..."، وبغير ذلك مما ليس من القرآن([[20]](#footnote-20)). وفي رواية أخرى أن مصحف ابن مسعود تنقصه الفاتحة أيضاً، وبذلك يكون عدد سوره 111 سورة([[21]](#footnote-21)).

أما مصحف أُبي بن كعب، فقد كان يحتوي على 116 سورة بعد أن أضاف افتتاح دعاء القنوت وظنّه سورتين، لأنه رأى الرسول يدعو بهما في الصلاة فظنّهما من القرآن([[22]](#footnote-22)). وهنالك من يقول إن السورتين الزائدتين في مصحف أُبي هما دعاء الخلع: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع (أي ننزع من بيننا) ونترك من يفجرك"، ودعاء الحفد: "اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد (أي نأتي خفافاً)، نرجو رحمتك ونخشى نقمتك، إن عذابك بالكافرين ملحق (أي آتٍ)"([[23]](#footnote-23)). ويبدو أن غير واحد من الصحابة قد اعتبر هذين الدعاءين من القرآن، فقد روي أن عمر قد قرأ في صلاته بعد الركوع فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم إنا نستعينك ونستغفرك.... إلى آخر الدعاءين([[24]](#footnote-24)). وهنالك من يقول إن مصحف أُبي كان يحتوي على 115 سورة لا على 116 سورة، لأنه أدمج سورة الفيل وسورة قريش في سورة واحدة([[25]](#footnote-25)).

ويقال بالمقابل إن مصحف عثمان الموحد قد أسقط من نصه أكثر من آية لعدم ثبوتها عن طريق شاهدين. ويبقى العلم عند الله أن تكون من القرآن أم لا، فقد رُوي عن عائشة قولها: "كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن"([[26]](#footnote-26)). وروي عنها أيضاً: "لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشراً. ولقد كانت في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله وتشاغلنا بموته دخل الداجن فأكلها"([[27]](#footnote-27)).

ويروى أن عمر أتى بآية الرجم إلى زيد بن ثابت فلم يكتبها، لأن عمر كان وحده([[28]](#footnote-28)). ولكن عمر بقي مصراً على موقفه، ويروى عنه أنه قال غاضباً: "لولا يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي"([[29]](#footnote-29)). وآية الرجم تقول وفق رواية أُبي بن كعب: "إذا زنيا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم"([[30]](#footnote-30)).

ومن الأخبار القائلة بسقوط آيات كثيرة من مصحف عثمان، ما هو مغرق في المبالغة، ولكننا نذكره من باب العلم بالشيء. فقد رُوي عن عائشة قولها: "كانت سورة الأحزاب تُقرأ في زمن النبي مئتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن (أي 73 آية)"([[31]](#footnote-31)). ويروى عن زر بن حبيش قال: "قال لي أُبي بن كعب كأيِّنْ تقرأون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين وإما أربعاً وسبعين. قال: قط؟ إنْ كانت لتقارب سورة البقرة أو هي أطول منها، وإن كانت فيها سورة الرجم([[32]](#footnote-32)). وقيل في سورة براءة (أو التوبة) الشيء نفسه. فقد روي عن مالك أن سورة براءة كانت تعدل بطولها سورة البقرة([[33]](#footnote-33)).

وحول الموضوع نفسه لدينا أخبار أقل مبالغة من سابقاتها. فقد روى أبو سفيان القلاعي أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم: أخبروني بآيتين في القرآن لم تكتبا في المصحف، فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك. فقال لهم: "إن الذين آمنوا وهاجروا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم، وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم، أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين، جزاءً بما كانوا يعملون"([[34]](#footnote-34)). وروى المسوَّر بن مخرمة قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أُنزل علينا "أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة؟" فإنا لا نجدها. قال ابن عوف: أُسقطت فيما أُسقط من القرآن([[35]](#footnote-35)). ويروى عن أُبي واقد الليثي قال: كان رسول الله إذا أُوحي إليه أتيناه فعلّمنا مما أوحي إليه، فجئت ذات يوم فقال: "إن الله يقول: إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون إليه الثاني، ولو كان إليه الثاني لأحب أن يكون إليهما الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"([[36]](#footnote-36)). وهذه الآيات غير موجودة في مصحف عثمان، ويروى عن عبد الله بن عباس أنه قال: لما نزلت: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين، وَرَهطكَ مِنْهُم المُخْلصِين"([[37]](#footnote-37)). ولا تحتوي الآية المذكورة (الشعراء: 214) في مصحف عثمان على "ورهطك منهم المخلصين". ويروى عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقرأ في مصحفه: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويستعينون بالله على ما أصابهم"([[38]](#footnote-38)). ولا تحتوي الآية 104 من سورة آل عِمران على جملة "ويستعينون بالله على ما أصابهم". وكان ابن الزبير يقرأ أيضاً: "لا جُناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام..."([[39]](#footnote-39)). وقد وردت الآية 198 من سورة البقرة في مصحف عثمان على الشكل التالي: "ليس عليكم من جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام...". ونلاحظ هنا أن مصحف ابن الزبير قد زاد جملة "في مواسم الحج"، كما قرأ "ليس عليكم من جناح": "لا جناح عليكم". وهذا ما يحيلنا إلى نوع آخر من الاختلافات وهو الاختلاف في القراءة. وهو ما سنلتفت إليه الآن، دون مزيد من الأمثلة بخصوص النقص والزيادة.

فقد روى البعض أن عمر بن الخطاب صلى في الناس فقرأ في سورة الفاتحة: "صراط من أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، وغير الضالين". وهي في مصحف عثمان «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ"؛ وأنه قرأ الآية الأولى من سورة آل عمران: "الم، الله لا إله إلا هو الحي القيام" بدلاً من الحي القيوم"([[40]](#footnote-40)). ورُوي أن عبد الله بن مسعود قرأ في مصحفه الآية 40 من سور النساء: "إن الله لا يظلم مثقال نملة" بدلاً من" "مثقال ذرة"؛ وأنه قرأ الآية 43 من سورة آل عمران: "واركعي واسجدي في الساجدين" بدلاً من "واسجدي واركعي مع الراكعين"؛ وأنه قرأ في الآية 64 من سورة المائدة: "بل يداه بسطان" بدلاً من "بل يداه مبسوطتان"؛ وأنه قرأ الآية 197 من سورة البقرة: "وتزودوا، وخير الزاد التقوى" بدلاً من "وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى"؛ وقرأ في الآية 61 من سورة البقرة: "من بقلها وقثائها وثومها" بدلاً من "من بقلها وقثائها وفومها"([[41]](#footnote-41)).

ورُوي عن أصحاب ابن مسعود أنهم قرأوا في الآية 202 من سورة البقرة: "أولئك لهم نصيب ما اكتسبوا" بدلاً من "أولئك لهم نصيب مما كسبوا"؛ وفي الآية 148 من سورة البقرة: "ولكلٍّ جعلنا قبلة يرضونها" بدلاً من "ولكل وجهة هو موليها"؛ وفي الآية 196 من سورة البقرة: "وأقيموا الحج والعمرة للبيت" بدلاً من "وأتموا الحج والعمرة لله"؛ وفي الآية 144 من سورة البقرة: "وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم قِبله" بدلاً من "وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره"؛ وفي الآية 110 من سورة الإسراء: "ولا تُخافت بصوتك ولا تُعال به" بدلاً من "ولا تخافت بها صوتك "([[42]](#footnote-42)) ويتابع السجستاني في كتاب المصاحف الذي نعتمد عليه هنا تعداد 130 موضع في القرآن اختلفت فيه قراءة ابن مسعود عن قراءة مصحف عثمان. ثم ينتقل إلى مصحف ابن عباس الذي نقتطف من اختلافاته مع مصحف عثمان المواضع التالية: فقد قرأ ابن عباس في الآية 158 من سورة البقرة: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما" بدلاً من «فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا»؛ وفي الآية 202 من سورة البقرة: "أولئك لهم نصيب مما اكتسبوا" بدلاً من "مما كسبوا"؛ وفي الآية 175 من سورة آل عِمران "إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه" بدلاً من "يخوف أولياءه"؛ وفي الآية 196 من سورة البقرة: "وأقيموا الحج والعمرة للبيت" بدلاً من "وأقيموا الحج والعمرة لله"؛ وفي الآية 159 من سورة آل عمران: "وشاورهم في بعض الأمر" بدلاً من "وشاورهم في الأمر"؛ وفي الآية 30 من سورة ياسين: "يا حسرة العباد" بدلاً من "يا حسرة على العباد"؛ وفي الآية 187 من سورة الأعراف: "كأنك حفيٌّ بها" بدلاً من "كأنك حفيّ عنها"؛ وفي الآية 227 من سورة البقرة: "وإن عزموا السراح" بدلاً من "وإن عزموا الطلاق"، وكذا الأمر في عشرة مواضع أخرى.([[43]](#footnote-43))

وقد اختلفت قراءات التابعين مثلما اختلفت قراءات الصحابة، فقد قرأ عبيد ابن عمير الآية الأولى من سورة العلق: "سبح اسم ربك الذي خلقك" بدلاً من "الذي خلق"؛ وقرأ عطاء الآية 175 من آل عمران: "الشيطان يخوفكم أولياءه" بدلاً من "الشيطان يخوف أولياءه"؛ وقرأ عكرمة في الآية 184 من سورة البقرة "وعلى الذين يطوّقونه" بدلاً من "وعلى الذين يطيقونه"؛ وقرأ مجاهد الآية 158 من سورة البقرة: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما" بدلاً من "فلا جناح عليه أن يطوف بهما"؛ وقرأ سعيد ابن جبير أيضاً في الآية 5 من سورة المائدة: "اليوم أُحلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب من قبلكم". وجملة "من قبلكم" غير واردة في مصحف عثمان؛ وقرأ ابن جبير أيضاً في الآية 117 من سورة الأعراف: "فإذا هي تلقم ما يأفكون بدلاً من "تلقف ما يأفكون"؛ وقرأ علقمة الأسود في سورة الفاتحة: "صراط من أنعمت عليهم" بدلاً من "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ".... وأمور أخرى من هذا القبيل([[44]](#footnote-44)).

ومن الاختلاف في القراءات ما هو ناجم عن الاختلاف في لفظ بعض الكلمات تبعاً للهجات العرب المتباينة، فكان من سمع الآية أنه ينطقها بلهجة قومه. وهذا ما يدعى باختلاف الأحرف. وعلى الرغم من أن الرواة قد أوردوا أحاديث عن الرسول يفهم منها أنه قد أجاز مثل هذا الاختلاف، كقوله: "نزل القرآن على ثلاثة أحرف" أو "نزل القرآن على أربعة أحرف" أو "نزل القرآن على سبعة أحرف"، إلا أن الموقف الحقيقي للرسول من هذه المسألة يوضحه ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود، أنه قال: اقرأني رسول الله سورة الأحقاف، فخرجت إلى المسجد فإذا رجل يقرؤها على غير ما أقرأني، فقلت: من أقرأك؟ فقال: رسول الله. فقلت: يا رسول الله، هذان يخالفاني في القراءة. فغضب وتمعّر وجهه، وقال: إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف... إن الله يأمركم أن يقرئ كل رجل منكم كما أُقرئ([[45]](#footnote-45))، وهذا هو الموقف الذي تبناه عمر بن الخطاب عندما أمر ابن مسعود يقرئ القرآن بلغة قريش، مما رويناه سابقاً.

مع انتشار العرب في الأمصار عقب الفتوحات، استفحل أمر الاختلافات في القراءة، الأمر الذي دعا الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى القيام بخطوته الجريئة في توحيد المصاحف في مصحف قانوني واحد. ويروى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى... فأمر عثمان بجمع المصاحف([[46]](#footnote-46)). ويروى عن حذيفة نفسه قوله: غزوت في فتح أرمينيا فحضرها أهل العراق وأهل الشام، فإذا أهل الشام يقرأون على قراءة أُبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق، فتكفرهم أهل العراق؛ وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام، فتكفرهم أهل الشام، فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفاً([[47]](#footnote-47)).

ويبدو أن حذيفة بن اليمان قد أوكل بمهمة الإشراف على إعداد المصحف الموحد، وأن هذه العملية قد تمت من قبل لجنة شُكلت لهذا الغرض. فقد روى السجستاني في كتاب المصاحف أن عثمان استدعى الكُتّاب وهم: زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير، وأمرهم بإعداد المصحف الموحد، وقال لهم: ما اختلفتم فيه فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. وورد في رواية أخرى أن عدد أفراد هذه اللجنة كان اثني عشر كاتباً من المهاجرين والأنصار([[48]](#footnote-48)). أما عن الطريقة التي اتبعتها هذه اللجنة في العمل، فيبدو أنها اعتمدت أساساً مصحف حفصة بنت عمر، بدليل الخبر القائل بأن عثمان أرسل إلى حفصة يقول: "أرسلي لي بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك"([[49]](#footnote-49))، وأن هذا المصحف قد قورن على المصاحف الأخرى. وفي مواضع الاختلاف كان يجري الاستعانة بالشهود، وذلك بدليل الرواية التي تقول إن عثمان عندما جمع القرآن قام في الناس فقال: من كان عنده شيء من كتاب الله فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يُشهد شاهدين([[50]](#footnote-50)). وبعد انتهاء العمل من المصحف الموحد، الذي دعي منذ ذلك الوقت بالمصحف العثماني، نُسخت منه نسخٌ وزعت على الأقطار الإسلامية، وأمر عثمان بإحراق بقية المصاحف ومنع تداولها. وقد أثنى علي بن أبي طالب على ما فعله عثمان وقال: "لو وُلِّيتُ لفعلت مثل ما فعل"([[51]](#footnote-51)). ووفق رواية ثانية: "لو كنت أنا لصنعت في المصاحف ما صنع عثمان"([[52]](#footnote-52)). وهكذا ظهر المصحف القانوني الموحد قبل انقضاء أربعة عقود على وفاة الرسول الكريم.

على أن المشكلة لم تنته عند هذا الحد. فالحروف العربية لم تكن بعد قد قبلت الحركات الصوتية التي توضع فوق الحروف الساكنة لتحريكها وضبط أواخر الكلمات، مثلما لم تكن الحروف المتشابهة قد قبلت النقاط بعددها ومكانها من الحرف للتفريق بينها، وذلك مثل التاء والياء والباء والنون، فكلمة "الوصف: بيت" يمكن أن تقرأ "بنت" أو "بيت"ن أن تقرأأن تقرأ "" أ أو "نبت"، ولذلك كان لا بد من الشروع بعملية الإعجام، وهي تزويد الحروف المتشابهة بالنقاط وبعملية التنقيط، وهي وضع الحركات الصوتية فوق الحروف. وهاتان العمليتان تدعيان اختصاراً بالتنقيط. وقد تم تنقيط القرآن الكريم في العصر الأموي. وتعزى هذه العملية إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي تارة، وإلى أبي الأسود الدؤلي تارة أخرى. وبهذه الطريقة تم ضبط القرآن بشكل نهائي مع نهاية القرن الأول الهجري.

قصة الخليقة

1- الخلفية الميثولوجية:

تتحدث أقدم الأساطير المدونة في ثقافات الشرق القديم، وهي الأساطير السومرية (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد)، عن خلق العالم ابتداءً من الهيولى المائية الأولى. ونستطيع اعتماداً على عدد من النصوص السومرية التي لم تصلنا كاملة، إعادة بناء أسطورة التكوين السومرية على الشكل التالي([[53]](#footnote-53)):

1- في البدء كانت الإلهة نمو، وهي المياه البدئية التي انبثق عنها كل شيء فيما بعد.

2- ثم إن هذه المياه الأولى أنجبت توأمين هما السماء آن، وهو مذكر، والأرض كي، وهي مؤنث، وكانا ملتصقين ببعضهما في كتلة مادية غير متمايزة، تدعوها النصوص السومرية بجبل السماء والأرض.

3- من تلاقح السماء والأرض ولد الهواء إنليل، وبدأ يشعر بالضيق من عدم وجود متسع له للحركة بين أبويه، فعمد بقوته الخارقة إلى فصل السماء عن الأرض، فسمت السماءُ وانبسطت الأرض، وراح الهواء إنليل يرتع بينهما.

إن عناصر قصة الميلاد المائي هذه تعود إلى الظهور في الميثولوجيا المصرية. ففي البدء لم يكن سوى الأوقيانوس المائي العظيم المدعو نون. في أعماق هذه الهيولى المائية البدئية، كانت تحوم روح بلا هوية تركزت في داخلها تدريجياً كل الممكنات، وصار اسمها آتوم (والكلمة تعني الاكتمال، وفي الوقت نفسه العدم). ثم إن آتوم هذا تجلى عند بدء الزمن تحت اسم آتوم - رع، وأنجب الآلهة والبشر. وفي رواية أخرى لقصة الخليقة المصرية نجد أن إله الشمس رع كان كامناً في حضن المياه الأولى نون تحت اسم آتوم. ولخوفه على نوره من الانطفاء انطوى داخل برعم لوتس ظل يهيم على غير هدى في الأعماق المائية. ثم جاء وقت سئم فيه من حالته الشبيهة بالعدم، فانبثق بإرادته الخاصة وتجلى تحت اسم "رع". وبعد ذلك أنجب الهواء شو، وهو مذكر، والرطوبة تفنوت، وهي مؤنث. وهذان أنجبا بدورهما الأرض جيب، وهو مذكر، والسماء نوت، وهي مؤنث. وكانت السماء والأرض في حالة التصاق وعناق شبقي دائم، ولكن الهواء شو الذي يؤدي هنا دور إنليل السومري، تسلل بينهما فرفع السماء على ذراعيه نحو الأعلى ووطئ الأرض بقدميه. ومنذ ذلك الحين وجيب ينوح ويبكي على فراق زوجته نوت([[54]](#footnote-54)).

على أن أكمل وأطول نص في التكوين قد قدمه لنا البابليون ورثة الحضارة السومرية، وهو يعود بتاريخه إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد وُجدت منه نسخة شبه تامة في مكتبة الملك آشور بانيبال بمدينة نينوى تعود بتاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد. في هذه الأسطورة يحل الإله البابلي مردوخ محل الإله القديم إنليل كبطل للتكوين، وهو الذي يفصل الكتلة المائية البدئية المدعوة تعامة، أو الأم هابور أصل كل الأشياء، والتي تصورها البابليون على هيئة تنين مائي هائل، ليصنع منها السماء والأرض وبقية مظاهر الوجود. فبعد معركة فاصلها مع هذه الإلهة وجُنْدِها، قطع مردوخ رأسها ثم شقها إلى قسمين، فانفتحت كما الصدفة، فرفع نصفها الأول إلى الأعلى فصار سماء وضع تحتها العوارض حتى لا يتسرب ماؤها، وبسط الثاني فصار أرضاً. ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم شؤون السماء والأرض، فعمد إلى السماء وزينها بالنجوم وأظهر كويكبات أبراج السنة، وصنع القمر وأوكله بالليل، وصنع الشمس وأوكلها بالنهار، وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل، ثم التفت إلى الأرض فأبرز معالمها وصنع التلال والجبال، وفجر من باطنها ينابيع وأسال أنهاراً، وخلق الغيوم وحمّلها بالمطر الغزير، مهيئاً بذلك لظهور الحياة النباتية والحيوانية. وأخيراً خلق الإنسان.

وقد وصلتنا هذه الأسطورة منقوشة على سبعة ألواح فخارية: الستة الألواح الأولى منها مخصصة لوصف فعاليات الإله الخلاقة، أما اللوح الأخير فمخصص لوصف جلوس الإله مردوخ على العرش في القصر الجديد الذي بناه له رفاقه الآلهة، واحتفالهم بنصره على تنين الماء وخلق العالم، وترنُّمهم بأسمائه الخمسين التي يعبر كل واحد منها عن صفة من صفاته أو خصيصة من خصائصه([[55]](#footnote-55)). ولعل هذا ما أوحى إلى المحررين التوراتيين، الذين استلهموا هذه الأسطورة في فترة السبي البابلي، بفكرة أيام الخلق الستة واستراحة الخالق في اليوم السابع، ودبَّجوا قصتهم التي تقوم على العناصر ذاتها التي قامت عليها أسطورة التكوين البابلية وبقية أساطير التكوين في الثقافات المشرقية.

2- قصة الخليقة التوراتية:

على الرغم من أن قصة الخليقة قد تصدرت الإصحاحات الأولى من سفر التكوين، وهو أول أسفار التوراة العبرانية، إلا أن إشارات متفرقة إلى فعاليات إله التوراة يهوه في التكوين قد وردت في عدد من الأسفار الأخرى، حيث نجد يهوه منهمكاً قبل الخلق، على طريقة الإله مردوخ، في السيطرة على المياه الأولى وإخضاعها، أو في الصراع مع تنين بحري يمثل تلك المياه، يدعى لواياتان أو رهب. نقرأ في سفر المزامير: "أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لواياتان... لك النهار ولك الليل أيضاً. أنت هيأت النور والشمس، أنت نصبت كل تخوم الأرض. الصيف والشتاء أنت خلقتهما". (المزمور 74: 13-17). وأيضاً: "أنت متسلط على كبرياء البحر، عند ارتفاع لججه أنت تُسكتها. أنت سحقت رهب مثل القتيل، بذراع قوتك بددت أعداءك. لك السماوات ولك الأرض أيضاً. المسكونة وملؤها أنت أسستهما، الشمال والجنوب أنت خلقتهما". (المزمور 89: 9-12). وأيضاً: "المؤسسُ الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر وإلى الأبد. كسوتَها الغمرَ كثوب. فوق الجبال تقف المياه، من انتهارك تهرب، من صوت رعدك تفر تصعد إلى الجبال، تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها. وضعتَ تخماً لها لا تتعداه، لا ترجع لتغطي الأرض". (المزمور 104: 5-9). ونقرأ في سفر إشعيا: "استيقظي، استيقظي، اِلبسي قوة يا ذراع الرب. ألستِ أنتِ القاطعةُ رهب، الطاعنة التنين؟" (إشعيا 51: 9).

وفي الحقيقة فإن فكرة إخضاع المياه البدئية وقتل تنينها، لم ترد إلى الميثولوجيا التوراتية من ميثولوجيا بلاد الرافدين فقط، وإنما من الميثولوجيا السورية الكنعانية أيضاً. ففي نصوص بعل وعناة التي وردتنا من ثقافة مدينة أوغاريت الساحلية، نجد الإله بعل أقوى وأفتى الأرباب يخضع المياه البدئية المتمثلة في الإله "يم" قبل أن يباشر مهامه في تنظيم العالم، وترتيب دورة الفصول التي تأتي بالمطر والثلج لخصب الأرض وحياة الزرع. كما إنه يصرع التنين البحري "لوتان"، الذي يظهر في النصوص التوراتية تحت اسم "لواياتان". نقرأ في نصوص بعل الفقرة التالية وما يقابلها في سفر إشعيا التوراتي، حيث يبدو وكأن المحرر التوراتي ينسخ حرفياً عن النص الأوغاريتي:

1- النص الأوغاريتي:

والآن تريد أن تسحق لوتان

الحية الهاربة

الآن تريد أن تُجهز على الحية المتحوية

ذات الرؤوس السبعة

2- سفر إشعيا 27: 1

في ذلك اليوم يعاقب الرب

بسيفه القاسي الشديد

لواياتان الحية الهاربة

لواياتان الحية المتحوية

ويقتل التنين الذي في البحر

نأتي الآن إلى النص الأساسي لقصة الخليقة التوراتية، مع لفت النظر إلى أن لفظ الجلالة "الله" أينما ورد في التوراة هو ترجمة للاسم العبري "إيلوهيم"، وهو أحد الأسماء التي استخدمها المحررون التوراتيون في الإشارة إلى إلههم، إلى جانب الاسم إيل والاسم يهوه:

"في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خَربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف فوق وجه المياه. وقال الله ليكن نور، فكان نور. ورأى الله أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله: ليكن جَلَدٌ في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك ودعا الله الجلد سماءً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله: لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزراً، وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكن لآيات وأوقات وسنين، وتكون أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله: لتُفِضْ المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض وعلى وجه السماء. فخلق الله التنانين وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً: أثمري واكثري واملئي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله لتُخرج الأرض ذوات نفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى كل الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم وقال لهم أثمروا واكثروا واملؤوا الأرض واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء على كل حيوان يدب على الأرض... ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

فأُكملت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل خالقاً" (سفر التكوين 1 و 2: 1-3).

تتفق قصة الخليقة التوراتية في جميع عناصرها تقريباً مع قصة الخليقة البابلية. فالخلق يتم انطلاقاً من المياه البدئية التي يفصلها الخالق ويصنع منها السماء والأرض. وبعد ذلك تتتابع مراحل خلق بقية مظاهر الكون وفق الترتيب نفسه، ويأتي خلق الإنسان بمثابة الخاتمة، ثم يستريح إله التوراة في اليوم السابع مثلما استراح مردوخ في قصره واستوى على عرشه أمام بقية الآلهة التي احتفلت به.

3- قصة الخليقة القرآنية:

كما هو الحال في سفر التكوين التوراتي، فإن القرآن الكريم يخبرنا بأنه في البدء لم يكن سوى الله والماء. ثم خلق الله كل شيء في ستة أيام: «وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء....» (سورة هود: 7) ويروي ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الحديث التالي عن الرسول الكريم رواه البخاري ومسلم: "كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء". وفي حديث آخر أن أبي هريرة قال لرسول الله: "إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني. فاخبرني عن كل شيء. قال رسول الله: كل شيء خُلق من ماء". (ابن كثير، ج 11 مجلد 2، ص 575. و ج 17 مجلد 3، ص 239).

وعندما أراد الله خلق العالم، عمد إلى هذه الكتلة المائية البدئية فشقها إلى نصفين، وصنع منها السماء والأرض: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ....» (21الأنبياء: 30). ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً»، أي كان الجمع متصلاً بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر. ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء". (الجزء 17، المجلد 3، ص 238). وفي موضع آخر يروي ابن كثير عن الربيع بن أنس: "وكان عرشه على الماء. فلما خلق السماوات والأرض قسَّم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور". (الجزء 11، المجلد 2. ص 75).

بعد ذلك تتتابع عمليات الخلق وفق ترتيبها في القصة التوراتية تقريباً، إلا أننا لا نستطيع أن نُرجع كل عملية إلى يوم بعينه من أيام التكوين. فقد رفع الله السماء وتركها في حالة سديمية غير منظمة، ثم التفت إلى تنظيم الأرض فرسم معالمها وخلق نباتاتها وحيواناتها: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» (31 لقمان: 10). «أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا» (36 النازعات: 27-31). «وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً....» (21 الأنبياء: 31-32).

وقد استغرق خلق الأرض وتنظيمها أربعة أيام من أيام الخلق الستة. بعد ذلك التفت الله إلى السماء وهي في حالتها السديمية، فنظم أمورها وزينها بالأجرام المضيئة والكواكب التي تسير في أفلاكها: «قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ‏ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41 فُصّلت: 9-12).

وهنالك آيات أخرى تشير باختصار إلى فعاليات التكوين دون أن توحي بترتيب معين، منها: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ....» (21 الأنبياء: 33). «....وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً....» (6 الأنعام: 96). «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ....» (10 يونس: 5). «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً» (25 الفرقان: 61). «وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ» (36 يس: 33-34). «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ....» (42 الشورى: 29).

بعد ذلك يأتي خلق الإنسان كآخر عمل من أعمال التكوين: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ‏ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء.... إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (2 البقرة: 29-30).

وكما رأينا الرب في الرواية التوراتية يستريح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، فإن الله يستوي على العرش في اليوم السابع: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ....» (57 الحديد: 4). ولكن الاستواء على العرش هنا لا يتضمن معنى الراحة: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ([[56]](#footnote-56))» (50 ق: 38).

وهنالك عنصر في الرواية القرآنية لم يرد في سفر التكوين التوراتي، وهو خلق سبع سماوات وسبع أرضين: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ....» (65 الطلاق: 12). «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً....» (67 المُلك: 3). ولكن مثل هذا التصور للسماء والأرض قد ورد في الأدبيات الدينية اليهودية، ومنها ما جاء في كتاب الهاجاده (وهو نوع من الشروح على التوراة يستخدم أسلوب القص). فعندما خلق الله السماء جعلها سبع طبقات تتدرج من السماء الدنيا التي تستند قبتها إلى الأرض عند الجهات الأربع، وحتى السماء السابعة التي تتصل بيدي الخالق. كما جعل الأرض أيضاً سبع طبقات. ثم جعل الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض وقسمه إلى سبع درجات، وجعل الفردوس في الجهة الشرقية وقسمه إلى سبع درجات أيضاً([[57]](#footnote-57)).

وقد غدا هذا التصور لطبقات السماء والأرض جزءاً من العقائد اليهودية الراسخة، والتي تتفق مع التصورات الكوزمولوجية لثقافات الشرق القديم، التي رأت أيضاً أن السماء تتألف من سبع طبقات، وفوق السماء السابعة هناك مسكن إله السماء المدعو آنو في بلاد الرافدين، وإيل في بلاد الشام. والتي رأت أيضاً أن الأرض تندرج هبوطاً في سبع طبقات نحو العالم الأسفل (أو الجحيم)، وفي كل بوابة من بوابات الجحيم.

17- قصة خلق الإنسان

الخلفية الميثولوجية:

كانت الميثولوجيا السومرية أول من عالج قصة خلق الإنسان في الأدب المكتوب، وذلك في نص يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. فقبل أن يظهر الإنسان على مسرح الأرض ويقدم لآلهته القرابين التي تقيم أَودَهُم، كان الآلهة يعملون ويكدون في الأرض من أجل تحصيل معاشهم. ثم جاء يوم تعبوا فيه من العمل فمضوا إلى إله الحكمة إنكي ليجد لهم حلاً، ولكن إنكي لم يعط أذناً صاغية لشكواهم، فمضوا إلى أمه نمو لتكون واسطتهم إليه. فخاطبته قائلة: "أي بني، انهض من مضجعك واصنع أمراً حكيماً. اجعل للآلهة خدماً يقدمون لهم معاشهم". نزل إنكي عند مشيئة أمه وأعطى تعليماته بخصوص عملية صنع الإنسان التي شارك بها كل من الإلهة نمو والإلهة ننماخ (= الأم الأرض) وآلهة الصناعة وربات الولادة، وجرى صنع الإنسان من الطين على صورة الآلهة. وعند هذه النقطة ينكسر الرقيم الفخاري وتضيع بقية القصة([[58]](#footnote-58)).

وقد التقطت الميثولوجيا البابلية اللاحقة العناصر الرئيسة لهذه القصة، وصاغت منها تصورات مشابهة فيما يتعلق بخلق الإنسان. ففي ملحمة أتراحاسيس نجد الآلهة المكلفين بالعمل والكد في الأرض يعلنون الثورة على وضعهم ويحرقون أدوات عملهم ثم يمضون إلى الإله إنليل طالبين إنصافهم، فيوكل إنليل إلى الإلهة مامي (= ننماخ أو ننتو) مهمة خلق الإنسان التي تنفذها بالتعاون مع الإله إنكي، حيث يتم قتل أحد الآلهة ويعجن دمه ولحمه بالطين الذي يُصنع منه جسد الإنسان. وبذلك يتحد الإله والإنسان في عجينة واحدة([[59]](#footnote-59)).

ولدينا نص بابلي يتحدث عن خلق الزوجين الأولين آدم وحواء، ويدعوهما أوليجار وألجار اللذين سوف يحملان وذريتهما عبء العمل عن الآلهة. فبعد الانتهاء من فعاليات التكوين، اجتمع الآلهة وتساءلوا عما بقي عليهم خلقه. فقال بعضهم لبعض: "لنذبح بعض آلهة اللامجا (وهم فصيلة من صغار الآلهة)، ومن دمائهم فلنخلق الإنسان فنوكله بخدمة الآلهة على مرّ الأزمان. سنضع في يده السلة والمعول، فيحفر الخنادق والترع، ويسقي الأرض بأقاليمها الأربعة، ويخرج من جوفها الخيرات الوفيرة. أوليجار وألجار سيكون اسماهما"([[60]](#footnote-60)).

خلق الإنسان في التوراة:

تقوم قصة خلق الإنسان التوراتية على ثلاثة عناصر رئيسة من العناصر التي قامت عليها الأساطير الرافدينية، وتضيف إليها عنصر الجنة حيث تم إسكان الإنسان الأول. وهذه العناصر هي:

1- خلقُ الإنسانِ من تراب ممزوج بالماء.

2- صُنعه على شبه الآلهة.

3- فرضُ عبء العمل عليه.

في الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، لدينا قصتان عن خلق الإنسان كما هو الحال في الأساطير الرافدينية؛ في القصة الأول هنالك حديث عن خلق الإنسان بصورة عامة دون الإشارة إلى الزوجين الأولين، وفي القصة الثانية هنالك حديث مفصل عن خلق الزوجين الأولين. فقد خلق الله الرجل آدم أولاً وأسكنه في جنة زرعها في منطقة من الأرض يدعوها النص بشرقي عدن، ثم خلق من ضلعه المرأة حواء.

وفي الحقيقة، فإن كلمة "آدم" التي استخدمها سفر التكوين كاسم علم للرجل الأول، هي كلمة سورية قديمة تدل على الإنسان بشكل عام، وتعني "البشر"؛ وقد وردت بهذا المعنى في أكثر من موضع في نصوص مدينة أوغاريت. ومنها ما ورد في ملحمة كِرت، حيث نجد الإله الأعلى إيل يلقَّب بأبي آدم، أي أبو البشر: "وبينما كِرت يبكي وقع عليه السبات، بينما هو يذرف الدموع غلبه النعاس، ولكنه ما لبث أن أجفل، إذ ظهر له في الحلم إيل، في رؤاه ظهر أبو آدم"([[61]](#footnote-61)).

سفر التكوين - القصة الأولى:

"وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثروا، واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً، وكل شجر فيه ثمر ليكون لكم طعاماً". (1: 26-29).

سفر التكوين - القصة الثانية:

"هذه مبادئ السماوات والأرض حين خُلقت. يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات، كل شجر الأرض لم يكن بعدُ في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل في الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. وجبلَ الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر... وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.

وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنعُ له مُعيناً نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وأما نفسه فلم يجد معيناً نظيره. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، وأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امريء قد أُخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. وكانا كلاهما عريانين، آدم وحواء، وهما لا يخجلان". (2: 1-25).

غير أن الرواية غير الرسمية في الأسفار التوراتية غير القانونية وفي الأدبيات اليهودية الأخرى، تضيف العديد من العناصر إلى هذه الرواية. ولعل أكثر التنويعات غنى وإثارة، هي ما قدمه لنا كتاب "الهاجاده" الذي زاد على الرواية الرسمية عدداً من العناصر، أهمها:

أ) استطلاع الله رأي الملائكة بخصوص ما هو مقدم عليه من خلق الإنسان.

ب) تحدي الله للملائكة لكي يخبروه بأسماء حيوانات الأرض قبل عرضها على آدم.

ج) الله يُعلّم آدم أسماء الحيوانات قبل عرضها عليه.

د) مع خلق آدم يخلق الله جميع أرواح البشر الذي سيتسلسلون من صلبه.

وفيما يلي أقدم ملخصاً لقصة خلق الإنسان كما وردت في الهاجاده([[62]](#footnote-62)).

"في البدء خلق الله سبعة أشياء قبل أن يخلق العالم هي: التوراة مسطرة بنار بيضاء على نار سوداء، والعرش الإلهي، والفردوس عن يمين العرش، والجحيم عن يسار العرش، والهيكل المقدس أمام العرش، ومذبح الهيكل، وجوهرة على مذبح الهيكل محفور عليها اسم المسيح المخلص. وعندما أراد خلق العالم تشاور مع التوراة بهذا الخصوص، فأبدت التوراة شكّها من جدوى خلق العالم الأرضي، لأن الناس سوف يُشيحون بوجوههم عن تعاليمها ويقعون في المعصية. ولكن الله بدد شكوكها بقوله إنه هيأ للبشر سبل التوبة والغفران قبل خلقهم، وأعد لهم وسائل تصحيح سلوكهم، وأنه قد جهز الفردوس والجحيم لأجل الثواب والعقاب، وسمى المسيح من أجل تقديم الخلاص لجميع الخطأة.

بعد أن انتهى الله من خلق السماوات وملائكتها والأرض وكائناتها جاء دور الإنسان. وهنا يستطلع الله رأي رؤساء الملائكة فيما يتعلق بهذه الخطوة، فجاءت مشورة معظمهم في غير صالح الإنسان، لأنه سيكون ممتلئاً بالكذب والغش والخداع، ميالاً إلى النزاع والخصام. فقال لهم: من أجل من خلقتُ طير السماء وسمك البحر وحيوان الأرض؟ وما نفع وليمة أُعدت فيها كل الطيبات وما من ضيف يتمتع بها؟ فأجاب الملائكة: ليكن اسمك ممجداً في الأرض كلها، ولتأت مشيئتك بما تراه مناسباً.

أرسل الله الملاك جبرائيل وأمره أن يأتيه بأربع قبضات من تراب جهات الأرض الأربعة، ثم عجنها بيديه وسواها في هيئة الإنسان، ثم نفخ في الصورة من روحه فصار آدم نفساً حية. وبذلك صار الإنسان أقدم مخلوقات الله لا آخرها في ترتيب الخلق، باعتبار ما لروحه من قِدم هو قدم الروح الإلهية ذاتها. ومع خلق آدم خلق الله جميع أرواح البشر الذي سيتسلسلون من صلبه إلى يوم القيامة، وحفظها في مكان خاص من السماء السابعة. وسيكون إذا حملت امرأة من نساء الأرض، فإن الله يقرر للكائن الجديد كل صفاته وخصائصه عدا تلك المتعلقة بالخير والشر، لأنه سيكون إنساناً مخيراً في سلوكه يتحمل تبعات أعماله. بعد ذلك يأمر الله خازن الأرواح أن يأتيه بالروح التي اسمها كذا، وتؤمر أن تحل في الجسد الذي بدأ في التكون.

ولقد خرج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين في العشرين من عمره، فأسكنه في جنة عدن ليحفظها ويرعاها، لا بواسطة عمله الجسدي، وإنما من خلال دراسته للتوراة والتزامه وصايا ربه. هذه الجنة قد زرعها الله في عدن شرقاً وذلك في اليوم الثالث من أيام التكوين، وقسّمها إلى سبع درجات لتستقبل كل درجة أهلها وفق ما قدموا في الحياة الدنيا، وجعل لها بوابتين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل واحد من أهل الجنة نضى الملائكة عنه حلّة القبر وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلاً من لآلئ وأحجار كريمة، وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائم تجري تحته أربعة أنهار، فنهر من لبن، ونهر من بلسم، وثالث من خمر، ورابع من عسل. وهناك عرائش تتدلى منها عناقيد من ذهب وجواهر، وتحت كل عريشة مائدة منصوبة من حجر كريم يقف عليها ستون ملاكاً يقولون للرجل الصالح: كل طعامك بفرح. وليس في المكان نور يأتيه من خارجه، لأن نوره مستمد من ضياء وجوه الصالحين الذين تحولت هيئاتهم فصارت تضاهي يوسف في الحسن والجمال.

بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يثبت للملائكة الذين عارضوا في خلق آدم تفوقه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم لينبئوه بأسمائها ولكنهم عجزوا عن ذلك، ثم عرضها على آدم بعد أن علّمه أسماءها وحياً، فسماها آدم بأسمائها. فلقد كان آدم نبياً وحكمته من حكمة الأنبياء".

خلق الإنسان في القرآن:

تقوم الرواية القرآنية عن خلق الإنسان على العناصر نفسها التي وجدناها في سفر التكوين وفي كتاب الهاجاده، على ما تبينه المقارنة التالية:

1- جسد الإنسان يُصنع من الطين.

"وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض". (التكوين 2: 7)

«خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ». (55 الرحمن: 14)

2- يستخدم الله يديه في صنع الإنسان تكريماً له على باقي المخلوقات:

"وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض". (التكوين 2: 7). "عجن الله بيديه أربع قبضات من تراب الأرض وسواها إنساناً". (الهاجاده).

«قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ....» (39 الزمر: 75)

3- بعد أن صنع الله جسد آدم من تراب، نفخ فيه من روحه ليصير نفساً إنسانية:

"ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية" (التكوين 2: 7). "ثم نفخ في صورة آدم من روحه، فصار آدم نفساً حية" (الهاجاده).

«....وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ .... ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ....» (32 سورة السجدة: 7-9)

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (38 ص: 71-72).

4- الله يستشير الملائكة في مسألة خلق الإنسان قبل أن يقدم عليه:

"استطلع الله رأي رؤساء الملائكة فيما هو مقدم عليه، فجاءت مشورة معظمهم في غير صالح الإنسان، لأنه سيكون ممتلئاً بالكذب والغش والخداع، ميالاً إلى النزاع والخصام" (الهاجاده).

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء.... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (2 البقرة: 30).

5- الله يُعد جنة غناء في منطقة شرقي عدن، ويُسكن فيها آدم:

"وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي صنعه"(التكوين 1: 8)

"ولقد خرج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين في العشرين من عمره، فأسكنه الله في الجنة التي غرسها في عدن شرقاً" (الهاجاده).

«جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار....» (السورة 20: طه: 76). «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا....» (2 البقرة: 35).

6- "مع خلق آدم خلق الله جميع أرواح البشر المتسلسلين من صلبه إلى يوم القيامة، وحفظها في مكان خاص من السماء السابعة". (الهاجاده).

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى....» (7 سورة الأعراف: 172).

7- الله يتحدى الملائكة أن يخبروه بأسماء حيوانات الأرض:

"وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها... فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية". (التكوين 2: 19-20).

"بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يثبت للملائكة تفوقه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم زوجاً زوجاً لينبئوه بأسمائها، ولكنهم عجزوا. فعرضها على آدم بعد أن علمه أسماءها وحياً، فسماها آدم بأسمائها". (الهاجاده).

«وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ....» (2 البقرة: 31-33).

8- الله يخلق المرأة من جسد آدم:

"فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم". (التكوين 2: 2-22). "ودعا آدم اسم امرأته: حواء. لأنها أم كل حي". (التكوين 3: 20).

«خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا....» (39 الزُمر: 6). «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء....» (4 سورة النساء: 1). وكما نلاحظ هنا فإن القرآن الكريم لا يتعرض لعنصر الضلع الذي أُخذ من آدم، ويكتفي بالقول بأن المرأة قد خُلقت من الرجل، كما إنه لا يشير إلى اسم المرأة الأولى.

17- إبليس الملاك الساقط

الخلفية التاريخية:

لقد واجه الإنسان منذ فجر وعيه ثلاثة أنواع من الشرور وهي:

1- الشرور الطبيعانية: مثل البراكين والزلازل والأعاصير والفيضانات والحرائق.

2- الشرور البيولوجية: مثل الألم والمرض والشيخوخة والموت.

3- الشرور الأخلاقية: مثل السرقة والاغتصاب والتسلط والظلم.

ولكن أديان الإنسان القديم لم تربط بين هذه الشرور ومصدر كوني للشر، وإنما عزتها إلى وجود أرواح أو آلهة خيّرة بطبيعتها وأخرى شريرة بطبيعتها. فالنظام المستقر والمتوازن على المستوى الطبيعاني والبيولوجي تدعمه هذه، والخروج على النظام تقوم به تلك. وقد قاده هذا التصور إلى تطوير نوعين من الطقوس: الأول يهدف إلى طلب عون الآلهة الخيّرة، والثاني يهدف إلى اتقاء أذى الآلهة الشريرة. أما الشر الأخلاقي فقد بقي شأناً اجتماعياً لا يتصل بتلك القوى الماورائية أرواحاً كانت أم آلهة. فالذي يسرق أو يظلم أو يعتدي ليس مدفوعاً من قبل إله خيّر، والذي ينصف ويحسن ويرأف ليس مدفوعاً من قبل إله شرير. وهكذا تُركت المجتمعات الإنسانية لتدير شؤونها الأخلاقية من خلال أعرافها وعاداتها المحلية دون وصاية من قوة قدسيةٍ ما.

من خلال هذه التصورات، لم يكن وجود الشر في العالم يطرح أي مشكلة على الفكر الديني للإنسان القديم. ولكن هذه المشكلة غدت أكثر إلحاحاً مع ميل الفكر الديني المشرقي إلى مفهوم التوحيد في سياق الألف الأول قبل الميلاد، عندما أخذ ذلك الفكر يرى إلى الكون باعتباره وحدة مترابطة متكاملة يسودها نظام دقيق يجمع الأجزاء إلى بعضها في توازن محكم، ويرى وراء هذا الكون قدرة إلهية واحدة غير مجزأة، كلية الحضور وكلية القدرة وكلية المعرفة، إليها تُعزى كل الكمالات التي تنتهي جميعاً إلى كمال الخير. عند هذه النقظة وجد الفكر التوحيدي نفسه أمام مشكلة تتطلب الحل؛ فإذا كان الله هو الخير المحض فمن أين يأتي الشر؟ أمام هذا السؤال تحولت آلية التفكير الجدلية بطبيعتها عند الإنسان إلى مفهوم الشيطان الكوني. وهذا الشيطان ليس كائناً ماورائياً شريراً من تلك الكائنات التي عرفتها الديانات السابقة، وإنما هو أصل الشر ومنبعه على المستوى الطبيعاني والبيولوجي والأخلاقي. إنه نقيض الله على كل صعيد.

كانت الزرادشتية (وهي أول ديانة توحيدية معروفة لنا تاريخياً، إذا استثنينا الآتونية المصرية التي لا نعرف عنها الكثير) أول عقيدة مشرقية صاغت مفهوماً متكاملاً عن الشيطان الكوني. فوفق التعاليم الأصلية لزرادشت، لم يكن في البدء سوى الله الذي يدعوه زرادشت أهورامزدا، وجود كامل وتام، قائم بذاته ومكتفٍ بنفسه. ثم إن الله اختار الخروج من حالة الكمون والظهور لمخلوقاته، فصدر عنه روحان توأمان هما سبينتا ماينيو وأنجرا ماينيو، اللذان وهبهما الله أهم خصيصة تميزهما عنه وتجعلهما كائنين مستقلين وهي خصيصة الحرية، فاختار الأول طريق الخير ولذلك دُعي سبينتا ماينيو أي الروح المقدس، واختار الثاني طريق الشر ولذلك دُعي أنجرا ماينيو أي الروح الخبيث. ثم إن الروح المقدس سبينتا ماينيو عمد بمعونة أهورامزدا إلى إظهار ستة كائنات قدسية هم الأميشا سبينتا أي المقدسون الخالدون، وهؤلاء بدورهم عمدوا إلى إظهار عدد من الكائنات الطيبة تدعى بالأهورا. أما الروح الخبيث أنجرا ماينيو فقد أظهر إلى الوجود عدداً من الكائنات الشريرة تدعى بالديفا. وهكذا فقد تم تأسيس معسكر الخير في مقابل معسكر الشر في انتظار المجابهة على مسرح العالم المادي الذي خلقه بعد ذلك أهورامزدا على ستة مراحل، وكان الإنسان آخر ما خلق في المرحلة السادسة. ومع خلق الإنسان انطلق التاريخ الذي سيشهد صراعاً لا هوادة فيه بين المعسكرين، وينتهي بالانتصار المؤزر لقوى الخير على قوى الشر. وسوف يقود المعركة الأخيرة ضد قوى الشر مخلّص منتظر يدعى ساوشيانط، وهو الذي يقضي على الشيطان. وبعد ذلك يجري تدمير العالم القديم الملوث بالشر، ثم تجديده ليغدو جنة أرضية. ثم تُفتح القبور في يوم النشور، فتهبط الأرواح من البرزخ الذي كانت تقيم فيه لتتحد مع أجسادها وتأتي إلى الحساب الذي يفصل بين الأشرار والأخيار. فأما الأشرار فيحرقهم نهر من النار ويمحو أثرهم بعد عذاب أليم، وأما الأخيار فيعيشون في الجنة الأرضية بعد أن يسقيهم ربهم شراب الخلود([[63]](#footnote-63)).

الشيطان في التوراة:

لم تتعرض قصة الخلق التوراتية إلى خلق الملائكة أو الشياطين أو أي كائنات ما ورائية أخرى، على الرغم من أن هذه الكائنات تبدأ بالظهور تباعاً بعد ذلك. ولكن محرّر سفر التكوين ترك لنا جملة غامضة في نهاية قصة الخلق يقول فيها: "فأُكمِلت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ في اليوم السابع من عمله". وهذا يعني أن يهوه لم يكن وحيداً عندما فرغ من خلق العالم، بل كان محاطاً بحشد من الكائنات الماورئية التي دعاها المحرر بجند السماء. وعلى الرغم من استخدام المحررين التوراتيين معاني مختلفة لتعبير جند السماء. إلا أنهم استخدموه في معظم الأحيان كمرادف لتعبير ملائكة الرب، وهؤلاء هم خدمه العاملون على تنفيذ أوامره ومساعدته في تدبير شؤون الكون. نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني على لسان النبي ميخا: "قد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جنود السماء وقوف عن يمينه ويساره" (2 أخبار 18: 18). وفي المزمور 103: "باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوةً، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه. باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامه العاملين مرضاته" (103: 19-21).

ومن بين جند الرب، أو جند السماء، جماعة أشرار هم الشياطين. وهؤلاء ليسوا خلقاً مستقلاً وإنما فريق من الملائكة موكلون بشؤون الشر هم أداة غضب يهوه: "أرسلَ عليهم حُموَّ غضبه، سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة أشرار مهَّد طريقاً لغضبه" (المزمور 78: 49-50). من هؤلاء الأشرار اثنان يسيران مع يهوه عندما يخرج في مهام التدمير، أحدهما يدعى في النص العبري رشف، وهو إله الأوبئة الفتاكة في الميثولوجيا الكنعانية، والثاني يدعى دبير أي الحُمَّى: "جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان له لمعان كالنور. قدامه ذهب الوباء (= رشف)، وتحت رجليه خرجت الحمى (= دبير)([[64]](#footnote-64))... بغضبٍ خطرْتَ في الأرض، بسخطٍ دُستَ الأمم" (حبقوق 3: 3-12). ومنهم واحد يدعى المهلك مكلف بالتخريب والتدمير. نقرأ على لسان يهوه في سفر إشعيا: "وأنا خلقت المهلك ليُخرب" (إشعيا 54: 16). وفي سفر إرميا: "قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم، خرج من مكانه ليجعل أرضكِ (يا يهوذا) خراباً، تَهلك مدنكِ فلا ساكنٌ" (إرميا 4: 7). وبينهم أرواحٌ رديئةٌ تتلبس من يخطئ أمام الرب وتسبب له الجنون، على ما حدث للملك شاؤل: "وذهب روح الرب من عند شاؤل وبغتهُ روح رديء من قِبل الرب... وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الرب اقتحم شاؤل وجُنَّ في وسط البيت" (صموئيل الأول 16: 14 و 18: 10).

بين هذه الكائنات الشريرة التي تعمل تحت إمرة يهوه شخصية رئيسة تدعى بأكثر من اسم؛ فتحت اسم عزازيل نجده أشبه بالجن التي تسكن البوادي والقفار غير المأهولة، وهو يقتسم قربان الخطيئة مع يهوه، أي القربان الذي يغسل بدمه خطايا الشعب، الأمر الذي يدل على علو مكانته. نقرأ في سفر اللاويين: "ويأخذ هرون التيسين ويوقفهما أمام الرب لدى باب خيمة الاجتماع، ويلقي على التيسين قرعتين؛ قرعة للرب وقرعة لعزازيل. ويقرّب هرون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحةَ خطيئةٍ، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقفه حياً أمام الرب ليُكفّر عنه ليرسله إلى عزازيل في البرية" (اللاويين 16: 5-10). وتحت الاسم بليعال نجده موكلاً بشؤون فاعلي الإثم الذين يدعوهم النص ببني بليعال (راجع على سبيل المثال سفر القضاة (19: 22-23) ، وسفر الملوك الأول (21: 10). وتحت الاسم شيطان، وهو بالعبرية ش ط ن أي المقاوم والمعاند، نجده في اتفاق مع يهوه ينفذ مهام توكل إليه، على ما نستنتج من المزمور 109 الذي يدعو كاتبه ربه أن يرسل من عنده شيطاناً على خصمه: "فأقم أنت عليه شريراً وليقف شيطان عن يمينه. إذا حوكم فليخرج مذنباً، وصلاته فلتكن خطيئة" (المزمور 109: 6-8). كما نجده يعمل في استقلال عن يهوه معارضاً لمشيئته، على ما نجد في سفر زكريا، حيث ينتهر الرب الشيطان لأنه وقف عن يمين الكاهن زكريا ليقاومه: "وأراني (الملاكُ) الكاهنَ العظيم يهوشع قائماً قدام الرب والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه. فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم". (زكريا 3: 1-2).

والشيطان كشخصية مستقلة في عملها قادر على خداع يهوه، على ما نرى في سفر أيوب عندما أوغر صدر يهوه على عبده الصالح أيوب بعدما سمع منه مديحاً بحقه، ووصَفه بأنه رجل صالح كامل ومستقيم. فقال له إن أيوب لا يتقيه مجاناً، وإنما لما أغدق عليه من سِعة في الرزق وصحة في البدن، ولكن إذا ناله الضرُّ من ربه فإنه سيجدف عليه. عند ذلك أطلق يهوه يد الشيطان في أيوب لينزل به المصائب في ماله وأهله وصحته، لكي يختبر قلبه.

هذه هي الملامح العامة لشخصية الشيطان كما تتبدى لنا في النص التوراتي. وكما نلاحظ، فإن الشيطان التوراتي لم يتحول إلى مبدأ كوني للشر حتى اختتام الأسفار القانونية في القرن الثاني قبل الميلاد. والسبب في ذلك راجع إلى تقصير الأيديولوجيا التوراتية عن بلوغ مفهوم الكمال والخير المطلق في شخصية يهوه، الذي بقي يتصرف حتى النهاية كزعيم قبلي مدفوع بردود أفعاله الآنية وبعواطفه الفطرية مثل الغضب والغيرة والانتقام، وهذا ما دفع بالشيطان إلى دائرة الظل عبر أحداث الرواية التوراتية، لأن يهوه هو صانع الخير وصانع الشر في آن معاً، على ما يعلن محرر سفر إشعيا على لسان إلهه: "أنا الرب وليس آخر. مصور النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر. أنا صانع كل هذا" (إشعيا 45: 6-7). ونقرأ في سفر يشوع بن سيراخ: "الخير والشر، الحياة والموت، الفقر والغنى، من عند الرب" (11-14). ولكن شخصية الشيطان تطورت بعد ذلك على يد محرري الأسفار غير القانونية التي مارست تأثيراً كبيراً في الفكر التلمودي وفي العقائد اليهودية، على الرغم من بقائها على هامش النص الرسمي للكتاب. وقد كان للأفكار الدينية الزرداشتية أثر كبير في نضوج لاهوت الشيطان في العقائد اليهودية بعد أن آلت المنطقة السورية إلى الحكم الفارسي بين عام 539 و 333ق.م.

يقدم لنا سفر أخنوخ الأول الذي ترجع أصوله الأولى إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، التصورات اللاهوتية المبكرة التي تشرح انقسام الملائكة إلى فريق صالح وآخر طالح شرير. ففي تلك الأيام الأولى:

"عندما تكاثر بنو الإنسان وولد لهم بنات حسنات وجميلات، حدث أن فريقاً من الملائكة أبناء السماء رأوا بنات الأرض فاشتهوهن. فقال بعضهم لبعض: هلم بنا نختار لأنفسنا زوجات من بني الإنسان وننجب منهن نسلاً. فقال لهم رئيسهم سيمياز: أخشى أن تتراجعوا عن فعل هذا الأمر بعد الشروع به فأدفع وحدي ثمن هذه الخطيئة العظيمة. فأجابوه جميعاً: دعونا نقسم قسماً بأن تحل اللعنة على من يتراجع عن فعل هذا الأمر. فأقسموا جميعاً وارتبطوا بقسم اللعنة هذا. ثم نزلوا فهبطوا على قمة جبل حرمون، وكان عددهم مئتين. وقد سمي الجبل حرمون نسبة إلى قسمهم الذي ربطهم باللعن (لأن كلمة حِرم بالعبرية تعني لعنة). وهذه أسماء رؤسائهم: سيمياز، راميئيل، تاميئيل، دانيئيل ...(إلخ). هؤلاء هم رؤساء العشرات، وكان الجميع تحت إمرتهم"([[65]](#footnote-65)).

بعد ذلك يتابع الكاتب فيقول إن زوجات هؤلاء الملائكة الساقطين ولدن لهم أولاداً عمالقة أكثروا من الشر في الأرض وأكلوا الأخضر واليابس. وعندما لم يبقَ ما يكفي لطعامهم راحوا يلتهمون البشر أيضاً، فصعد صراخ البشر إلى السماوات. عند ذلك نظر الملائكة ميخائيل وسورافيل وجبرائيل من الأعالي ورأوا ما يجري على الأرض من شر وعنف، فمضوا إلى الرب وأطلعوه على الأمر، فبعث الرب مع الملائكة إلى أخنوخ يأمره أن يذهب إلى الساقطين وينقل لهم قضاء السماء بشأنهم؛ فهم سيشهدون ذبح أولادهم العمالقة ثم يقيدون في ثنايا الأرض حتى يوم الدينونة عندما يقادون إلى هوة النار والعذاب الأبدي. سمع الساقطون حكم الرب عليهم فارتاعوا والتمسوا من أخنوخ التوسط لهم لدى الرب علّه يقبل استرحامهم واستغفارهم. فمضى أخنوخ وجلس عند ضفة النهر حيث قرأ استرحام الساقطين، ثم غرق في نوم عميق وعرضت له رؤيا حملته إلى السماء حيث وضعه الملائكة في حضرة الرب الذي كلّمه قائلاً: "لا تخف يا أخنوخ أيها الرجل الطيب يا كاتب الصدق. تقدم إلي واسمع صوتي. اذهب إلى ساهري السماء (وهو لقب الساقطين لأنهم كانوا مكلفين بالسهر على أحوال الأرض وتفقدهاعلى الدوام) وقل لهم: كان أحرى بكم أن تسترحموا من أجل الإنسان لا أن يسترحم الإنسان من أجلكم. وقل لهم: لماذا توليتم عن السماء العليا المقدسة لتناموا مع النساء وتتدنسوا ببنات الناس، وتأخدوا لكم زوجات مثل بني البشر وتنجبوا منهن أولاداً عمالقة؟... لقد أعطيتُ رجال البشر زوجات يخصبوهن حتى لا يفنى جنسهم على الأرض، أما أنتم فكنتم روحانيين وخالدين على مرّ أجيال الأرض، فلم أعطكم زوجات لأن السماء مسكنكم. والآن فإن العمالقة أولادكم، نسل الروح والجسد، سيدعون أرواحاً شريرة لأن أرواحاً خبيثة سوف تنشأ عن أجسادهم (المذبوحة) ويكون في الأرض مسكنها... سوف يسببون الأذى والعنف والدمار على الأرض، ويدفعون الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية... عندما يهلك العمالقة سوف تعيث الأرواح الخارجة منهم فساداً وترتع بلا رادع إلى يوم الحساب الأخير يوم يهلك الساهرون الساقطون".

يقدم لنا هذا النص شرحاً لأسباب وجود الشر في العالم، إلا أنه يبقى ضمن الرؤية التوراتية الرسمية للخير والشر على أنهما من صنع يهوه، الذي على الرغم من عقابه للعمالقة إلا أنه ترك أرواحاً شريرة تنشأ عن أجسادهم القتيلة تدفع الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية، أما الملائكة الساقطون فسيبقون على قيد الحياة إلى يوم الحساب الأخير. هذه الفكرة سوف يجري تطويرها في سفر اليوبيليات (= الخمسينيات) الذي تنضج فيه شخصية الشيطان كرئيس للأرواح الشريرة، وتبدأ باتخاذ خصائص المبدأ الكوني للشر.

وُجدت أجزاء من سفر اليوبيليات بين نصوص قمران باللغة العبرية، الأمر الذي يدل على أن أصوله ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد. كما وُجِدتْ أجزاء منه مترجمة إلى اللغة اللاتينية. أما النص الكامل فمتوافر فقط في اللغة الأثيوبية. والكنيسة الأثيوبية ما زالت حتى الآن تعدّه من الأسفار القانونية لكتاب العهد القديم. يقتفي مؤلف هذا السفر أثر مؤلف سفر أخنوخ الأول في موضوع الملائكة الساهرين الذين هبطوا إلى الأرض وتزوجوا من بنات الناس، وأولادهم العمالقة، والأرواح الشريرة التي أفسدت في الأرض. ثم يضيف إلى ذلك قصة الطوفان العظيم الذي أرسله الرب إلى الأرض بعد أن كثر شر البشر وأفنى به كل ذي روح إلا نوحاً ومن في الفلك معه. ولكن قوى الشر ما لبثت أن نشطت مجدداً. نقرأ في الفصل العاشر من السفر ما يلي:

"في الأسبوع الثالث من تلك الخمسينية، أخذ الشياطين المتمردون بتضليل نسل نوح ودفعهم إلى الرذالات وإهلاكهم. فجاء أولاد نوح إلى أبيهم وحدثوه بأمر الشياطين التي تعمي وتهلك أحفاده. فصلى نوح إلى الرب إلهه وقال: يا إله الأرواح التي تقيم في كل جسد، أنت الذي رحمني مع أولادي وأنقذني من مياه الطوفان فلم أهلك مع أبناء اللعنة... أسبغ نعمتك على أولادي ولا تدع للأرواح الشريرة عليهم سلطاناً... أنت تعلم ما فعله ملائكتك الساهرون آباء هذه الأرواح في أيامي، وما فعله من بقي من هذه الأرواح (بعد حملتك عليهم). فلتوقع بهم وتقودهم إلى مكان الحساب ولا تتركهم يعيثون فساداً بين أبناء خادمك، لأنهم يا إلهي قساة وقد خُلقوا لكي يدمروا، فلا تدع لهم سلطاناً على نفوس البشر"([[66]](#footnote-66)).

يستجيب الرب لصلاة نوح، ويأمر فريقاً من الملائكة بمطاردة الشياطين وتقييدهم، ولكن رئيسهم مستيما يلتمس من الرب أن لا يهلك أتباعه جميعاً بل يترك له قسماً منهم. فيوافق الرب على إمهاله ومن بقي من أتباعه إلى نهاية الزمن:

"فأمرنا الرب إلهنا (والكلام هنا للملاك الذي يملي الكتاب على موسى) أن نوثقهم جميعاً، ولكن رئيس الأرواح مستيما مَثلَ أمام الرب وقال له: أيها الإله الخالق، اترك لي بعضاً منهم ليستمعوا إلي ويفعلوا ما آمرهم به، لأنه إذا لم يبق منهم أحد معي لا أستطيع بسط سلطاني على بني البشر، لأن شر البشر عظيم وبنو الإنسان منذرون للضلالة قبل أن يصدر حكمك بشأني. فأمر الرب أن يبقى عُشر الأرواح الشريرة مع مستيما، وأن ينزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب. ثم أمر واحداً منا أن يُعلّم نوحاً كل سبل الشفاء من شر الشياطين، لأنه يعرف أن البشر لن يسيروا ولن يجاهدوا في سُبل الحق والخير".

بعد ذلك يدخل يهوه والشيطان في علاقة معقدة، فهو يقيده ليكف أذاه أحياناً، ثم يطلقه لكي يتابع مهامه في أحيان أخرى. وسأكتفي فيما يلي بمقطع من أحداث سفر الخروج كما يرويه كاتب النص. والمتحدث هنا هو يهوه:

"ولقد انتصب الرئيس مستيما أمامك يا موسى وحاول تسليمك ليد فرعون، كما أنه حاول مساعدة سحرة مصر الذين مارسوا سحرهم أمامك... ولكن الرب ضربهم بقروح رديئة ومنعناهم عن إتيان معجزة واحدة. ولكن الرئيس مستيما لم ينخذل بل استجمع قواه وأهاب بالمصريين أن يلاحقوك بكل جيوشهم وبكل عرباتهم وخيلهم، ولكني حلْتُ بين المصريين وإسرائيل وخلصنا إسرائيل من يد فرعون وشعبه... وفي الأيام الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر، كان الرئيس مستيما مقيداً ومحجوزاً خلف مكان بني إسرائيل لكي لا يلاحقهم ويوقع بهم. وفي اليوم الثامن عشر حللنا قيوده مع أتباعه لكي يساعد المصريين على ملاحقة إسرائيل، فشدد عزيمة المصريين وقواهم، ثم قيدناه مجدداً ...إلخ".

يبقى هذا النص أميناً لفكرة مسؤولية يهوه عن وجود الشر في العالم، ثم يضيف إليها فكرة المهلة التي منحها يهوه للشيطان لكي يتابع مهامه في غواية البشر. بعد ذلك تتطور قصة الشيطان نحو شكلها الأخير، حيث نجد أن سقوط الملاك الرئيس ومن تبعه من أوليائه، لم يكن بسبب رغبتهم في نساء البشر. وإنما بسبب عصيان الملاك الرئيس أمر ربه بالسجود لآدم. وهذا التنويع على القصة موجود في أكثر من نص.

تبدأ قصة عصيان الملاك الرئيس في سفر أسرار أخنوخ (أو أخنوخ الثاني)، الذي يقدم تنويعه الخاص على قصة الخليقة التوراتية. فلقد خلق الرب الملائكة من جوهر النار، وذلك في اليوم الثاني من أيام التكوين، وجعلهم في طبقات لكل طبقة رئيس. ولكن أحد رؤساء هذه الطبقات ويدعى ساتانا إيل، تصور في قلبه خطة مستحيلة، وهي أن يعلو ويصبح نداً للعلي في القوة، فتمرد هذا الملاك الرئيس على خالقه ثم أغوى مَن تحته من الملائكة وزين لهم العصيان. ولكن الرب رماه من الأعالي مع ملائكته، ففقدوا بريقهم الإلهي وتحولوا إلى أرواح متمردة شريرة تهيم فوق وجه الهاوية السفلى([[67]](#footnote-67)).

في كتاب حياة آدم الذي يعود تاريخ نصه الأصلي إلى زمن ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، نجد أن سبب سقوط الملاك الرئيس هو رفضه السجود لآدم. والقصة هنا يرويها الشيطان نفسه لآدم بعد طرده من الفردوس عندما حاول إغواءه وزوجته مجدداً، فصرخ آدم في وجهه قائلاً: الويل لك أيها الشيطان. لماذا تهاجمنا دون سبب؟ وما الذي فعلناه حتى تلاحقنا دوماً بالمكر والخديعة:

"فتنهد الشيطان وقال: أنت السبب في كل هذا العداء والحسد. بسببك أنت طُردتُ وحُرمتُ من مجدي في السماء بين الملائكة، وبسببك أنت رُميتُ من الأعالي إلى الأسافل. فقال آدم: ما الذي فعلته لك؟ وعلى ماذا تلومني؟ لماذا تلاحقنا ولم نسبب لك ضرراً ولا أذى؟ فأجاب الشيطان: عن أي شيء تتحدث يا آدم؟ بسببك أنت أخرجتُ من هناك، وبعد خلقك أنت أُبعدتُ من حضرة الرب وصحبة الملائكة. فبعدما صنعك الرب على صورته ونفخ في أنفك نسمة الحياة، أتى بك ميكائيل لنسجد لك في حضرة الرب الذي قال لك: انظر يا آدم؛ لقد صنعناك على صورتنا كشبهنا. ولقد دعا ميكائيل كل الملائكة قائلاً: اسجدوا لصورة الرب الإله كما آمر. وكان ميكائيل أول الساجدين، ثم دعاني إلى السجود قائلاً: اسجد لصورة الإله يهوه. فأجبته: أنا لا أسجد لآدم. وعندما ألحَّ علي قلت له: لن أسجد لمن هو أدنى مني مرتبة، فلقد خُلقت قبله وعليه هو أن يسجد لي. لما سمع الملائكة التابعون لي قولي رفضوا السجود أيضاً. ولكن ميكائيل ألحَّ علينا قائلاً: إذا لم تسجدوا سوف يصب الرب جام غضبه عليكم. فقلت: إذا غضب الرب علي سوف أرفع لنفسي كرسياً فوق النجوم وأصبح نداً للعلي. فلما سمع الرب قولي ثار غضبه وأنزلني من مرتبة المجد مع أتباعي وطردنا من مقرنا الأعلى إلى الأرض حيث لبثنا نندب مجدنا الضائع. وقد آلمني أن أراك تنعم بالبركة، فجئت زوجتك بالخديعة وأغويتها فجعلتها سبب فقدانك أفراح النعيم مثلما فقدتُ بسببك مجدي العظيم"([[68]](#footnote-68)).

في أحد نصوص الهاجاداه (وهي مجموعة شروح على هامش التلمود دونت في القرون الأولى للميلاد من أجل تقريب المعتقدات التلمودية إلى ذهن عامة الناس من خلال أسلوب القص المشبع بالميثولوجيا)، لدينا رواية مشابهة عن عصيان الملاك الرئيس المدعو ساتان للأمر الإلهي. فبعد أن خرج آدم إنساناً تام التكوين من يد الخالق، أمر الرب كل الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثالاً في الطاعة والخضوع للأمر الإلهي. ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم، رفض السجود قائلاً للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكمةً وفهماً. وهنا تدخل ميكائيل وألح على ساتان قائلاً: إذا لم تبجل آدم وتخضع له عليك أن تتحمل عاقبة غضب الرب. فأجابه ساتان: إذا صب غضبه علي سوف أرفع عرشي فوق النجوم وأغدو نداً للعلي. فلما سمع الرب منه ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض. وتبعه حشد من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسد لآدم ورفضٍ لسموه عليهم. ومن تلك اللحظة صارت عداوة بين الشيطان والإنسان([[69]](#footnote-69)).

وتتجلى عداوة الشيطان للإنسان بأكثر من طريقة، فهو يزين له الشر ويبعده عن طريق الخير، ويغذي في نفسه نوازع الطمع والحسد والغرور ويدفعه إلى الكذب والغضب والظلم والفسق، وكل نقيصة أخرى في السلوك الإنساني. ولعل من أهم وظائف الشيطان في هذه الأسفار كونه ولي الكافرين، في مقابل يهوه ولي المؤمنين. ففي النص لمعروف بعنوان رؤيا إبراهيم، الذي يُرجع الباحثون تأليفه إلى أواسط القرن الثاني الميلادي، يصعد إبراهيم إلى السماء حيث يريه الرب تاريخ الأرض معروضاً عليه دفعة واحدة. ومن بين ما رأى جنة عدن وفيها آدم وحواء وبينهما الشيطان عزازيل يطعمهما من ثمار الشجرة المحرمة، وعن يمين ويسار المشهد مجموعتان كبيرتان من الناس. يسأل إبراهيم ربه عن أهل اليمين وأهل اليسار هؤلاء، فيجيبه بأن أهل اليسار هم الخطأة الذين أداروا ظهرهم للرب فأعطاهم إلى عزازيل ليسود عليهم، أما أهل اليمين فهم شعب الرب الذين آمنوا به واتبعوا وصاياه، فهو وليهم إلى يوم الدينونة([[70]](#footnote-70)).

ونقرأ في مخطوط نظام الجماعة، وهو من مخطوطات البحر الميت، ويرجع بتاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد ما يلي: "في يد أمير الأنوار سيادة على جميع أبناء الرب فهم في طريق النور يسيرون، وفي يد ملاك الظلمة سيادة على جميع أبناء الضلال فهم في طريق الظلام يسيرون. ولكن بسبب ملاك الظلمة يضل أبناء البر أيضاً، فكل آثامهم وخطاياهم ومعاصيهم هي بسببه. حسب أسرار الرب، إلى نهاية الزمن"([[71]](#footnote-71)).

في القرآن الكريم:

يدعى الملاك الساقط في القرآن الكريم بالشيطان، وهي من الكلمات الأجنبية. وقد وردت في العبرية التوراتية بصيغة شطن، وفي الأسفار التوراتية غير القانونية بصيغة ساتان أو ساتانا إيل، وفي السريانية بصيغة سوتونو. ومنها جاءت الكلمة الإنكليزية Satan. كما يدعى الملاك الساقط في القرآن أيضاً بالاسم إبليس، وهو على ما يبدو صيغة محرفة عن الكلمة اليونانية ديابولوس التي استخدمتها المؤلفات المسيحية. ومنها جاء الاسم الآخر للشيطان في الإنكليزية Devil.

يستخدم النص القرآني الاسم إبليس في قصه عن سقوط الملاك الرئيس التي تقوم على العناصر نفسها التي رأيناها في الأسفار التوراتية غير القانونية، وفي نصوص الهاجاداه التي غدت جزءاً من الأدبيات التلمودية. أما بعد سقوط الملاك وتحوله إلى عدو البشر، فإن النص القرآني يستخدم الاسم شيطان في بقية أخباره عن نشاط ذلك الملاك الأسود في التاريخ وصولاً إلى اليوم الأخير.

يعيد النص سرد قصة السقوط في أحد عشر موضعاً، وبتنويعات طفيفة نورد أكثرها تفصيلاً فيما يلي:

1- «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ‏ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ» (7 الأعراف: 11-18).

2- «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ‏ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ» (15 الحجر: 28-43)

3- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً» (17 الإسراء: 61-65).

4- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» (20 طه: 116-117).

5- «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ‏ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (38 ص: 71-85).

6- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً» (18 الكهف: 50).

نلاحظ من البنية اللغوية للأمر الإلهي بالسجود لآدم ورفض إبليس الانصياع لهذا الأمر، وذلك في التنويعات الخمسة الأولى على القصة، أن إبليس كان من الملائكة، لأن الاستثناء في قوله: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى»، وتنويعاته الأخرى هو استثناء متصل لا منقطع، لأن وقوع الإباء منه دليل على أن الأمر الإلهي يشمله وأنه من الملائكة. ولكن التنويع السادس يشذ عما سبق، إذ يعْلمنا أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة. فإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمر الإلهي الموجه إلى الملائكة لا يشمله، كما إن إباءه من السجود لا يكون معصية لأن المأمور غيره. وهذا من متشابهات القرآن التي لم يصل المفسرون إلى اتفاق بشأنها.

على الرغم من أن القصة القرآنية هي أكثر اختصاراً وإيجازاً من مثيلاتها في الأسفار غير القانونية، إلا أنها تتفق معها في العناصر الرئيسة، وهي:

1- الأمر الإلهي وعصيانه:

"بعد خروج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين، أمر الرب كل الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثالاً في الطاعة. ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم رفض السجود" (الهاجاده).

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ‏» (5 الحجر: 28-31).

2- إبليس يبرر سلوكه:

"قال ساتان للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكماً وفهماً" (الهاجاداه).

«قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ» (15 الحجر 32-33). «....قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» (7 الأعراف: 12).

3- الطرد والسقوط:

"فلما سمع منه الرب ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض وتبعه حشد من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسد لآدم" (الهاجاداه).

«قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» (7 الأعراف: 13). «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» (38 ص: 77-78).

4- طلب المهلة:

"فأمرنا الرب إلهنا أن نوثقهم جميعاً (= الأرواح الشريرة)، ولكن رئيس الأرواح مستيما مثل أمام الرب وقال له: أيها الإله الخالق، اترك لي بعضاً منهم ليستمعوا إلي ويفعلون ما آمر به، لأنه إذا لم يبق منهم أحد معي لا أستطيع بسط سلطاني على بني البشر... فأمر الرب أن يبقى عُشر الأرواح الشريرة مع مستيما، وأن يُنزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب" (سفر أخنوخ الأول).

«قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ» (7 الأعراف: 14-15).

«قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» (15 الحجر: 36-38).

وعيد إبليس:

يكتفي النص التوراتي من وعيد إبليس بقوله: ومنذ ذلك الوقت صارت عداوة بين الإنسان والشيطان (الهاجاداه). أما في النص القرآني فإن إبليس يسترسل في وعيده عارضاً بأسلوب فظ وسائله في الانتقام:

«قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (38: ص 82). «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (15 الحجر: 39-40). «ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» (7 الأعراف: 17).

أمام هذا الوعيد يتحدى الله إبليس بأنه مهما فعل لن يقدر على إغواء الصالحين من عباده: «قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً» (17 الإسراء: 63-65).

وعلى الرغم من أن الرواية القرآنية لا تنص صراحة على أن حشداً من الملائكة تبعوا إبليس وتحولوا إلى شياطين، إلا أن الإشارات اللاحقة إلى الشياطين بالجمع، وإلى جنود إبليس وذرية إبليس، تدلنا على ذلك: «فَكُبْكِبُوا فِيهَا([[72]](#footnote-72)) هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ» (26 الشعراء: 94-95). «....أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ....» (18 الكهف: 50). وكلمة ذرية هنا لا تعني النسل بالمعنى البيولوجي وإنما النظائر والأشباه، وذلك كقوله تعالى: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ....» (17 الإسراء: 27). أي إن المبذرين كانوا من نوع الشياطين.

بعد سقوط إبليس ودخوله في التاريخ، نراه تحت اسم الشيطان يتربص ببني آدم ليضلهم عن سبل الحق: «....إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً» (17 الإسراء: 53). «....وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (2 البقرة: 208). «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء....» (2 البقرة: 268). «....وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً» (4 النساء: 60). «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء....» (5 المائدة: 91). «....وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ....» (27 النمل: 24).

ولا أدل على سلطان الشيطان على بني البشر من قدرته على التلاعب بعقول أنبياء الله أنفسهم، والتشويش على عملية الوحي، وذلك بأن يزرع في قلوبهم آيات شيطانية تبدو لهم للوهلة الأولى آتية من الرحمن. وهذا هو مؤدى قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» (22 الحج: 52-53). ومن أقوال بعض المفسرين في أسباب نزول هذه الآيات من سورة الحج، ومنهم الطبري، نورد الملخص التالي:

ورد في خبر حديث الغرانيق أن الرسول تمنى في نفسه أن ينزل عليه من الوحي ما يُقرب بينه وبين قومه المشركين في مكة، ويحبب إليهم الإيمان. وكان ذات يوم جالساً في ناد من أنديتهم وقد نزلت عليه سورة والنجم إذا هوى، فأخذ يقرؤها عليهم حتى إذا بلغ قوله: «أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى» وكان تمنيه لا يزال عالقاً في نفسه، فأجرى الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى". ومضى الرسول يقرأ حتى أتم السورة ثم سجد وسجد معه المسلمون وكذلك المشركون من قريش، ثم تفرق الناس وخرجت قريش مسرورة بما ذكر محمد عن آلهتهم أحسن الذكر. وقد بلغ خبر السجدة من بأرض الحبشة من المهاجرين، وقيل لهم قد أسلمت قريش، فهمَّ بعضهم بالرجوع وتريث آخرون. ثم إن جبريل أتى إلى النبي وقال: ما صنعت يا محمد؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به، فجزع الرسول، ولكن الله كان به رحيماً، وأنزل عليه ما نسخ الذي أجراه الشيطان على لسانه: «أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ....» (53 النجم: 19-23).

وعلى الرغم من عصيان الشيطان وتنفيذه للعهد الذي قطعه على نفسه بمقاومة أعمال الرحمن، ومِن وصفِه بالكفر في بعض الآيات: «....وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً» (17 الإسراء: 27)، إلا أنه يبدو في بعض الأحيان، وكما هو الحال في النص التوراتي، خاضعاً للرحمن يأتمر بأمره متى يشاء: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ» (43 الزخرف: 36-37). «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً» (19 مريم: 83-84). وبعد أن وُصف الشيطان بالكفر في المقتبس السابق من سورة الإسراء، نجده يعلن إيمانه في سورة الحشر: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» (59 الحشر: 16). وهو يتوعد المشركين، بدلاً عن الله، بالعذاب الأليم: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ.... مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم» (14 إبراهيم: 22).

وكما هو الحال في الروايات التوراتية، فإن البشر موزعون بين فريقين هم أهل اليمين الواقعون تحت سلطة الرحمن فهو وليهم، وأهل الشمال الواقعون تحت سلطة الشيطان فهو وليهم: «اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ....» (2 البقرة: 257). «فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (16 النحل: 63). «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاء مَّسْكُوبٍ» (56 الواقعة: 27-31) «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ» (56 الواقعة: 41-44). ومن الجدير بالذكر أن الإنجيل أيضاً قد أتى على ذكر أهل اليمين وأهل الشمال، وذلك في قول يسوع عن عودته في اليوم الأخير: "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذٍ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رِثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم... ثم يقول أيضاً للذين على اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدة لإبليس وملائكته. فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية" (إنجيل متى 25: 31-46).

أما عن مصير إبليس عند اختتام تاريخ العالم، فلا نمتلك إلا إشارات عابرة تدل على أن مآله هو وأتباعه إلى النار الأبدية. من ذلك ما ورد من المقتبس السابق من سورة الأعراف: «لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ». وفي المقتبس من سورة الشعراء: «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ»

18- سقوط الإنسان

لم يطل الوقت بآدم وزوجه في الجنة، لأن معصيتهما للخالق قد تسببت بطردهما من الجنة إلى الأرض القاحلة ليُحصّلا قوتهما منها بالتعب والعرق. وسنبتدئ أولاً بسرد الرواية الرسمية التوراتية لقصة السقوط كما وردت في سفر التكوين، ثم ننتقل إلى الرواية غير الرسمية التي وردت في الأسفار غير القانونية.

الرواية التوراتية :

"وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من كل شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" (التكوين 2: 15-16).

"وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما من ثمر الشجرة التي وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة جيدة للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها معها أيضاً فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.

وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: ومن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عَقِبَهُ. وقال للمرأة: تكثيراً أُكثّر من أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها، لأنك من تراب وإلى تراب تعود.

ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي. وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما. وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أُخذ منها، فطَرَدَ الإنسانَ، وأقام الرب شرقي جنة عدن: الكروبيم (= ملائكة مجنحة حارسة) ولهيبَ سيف متقلب، لحراسة طريق شجرة الحياة" (التكوين 3: 1-24).

في هذه القصة الرسمية لسقوط الإنسان نلاحظ غياب الشيطان عن مسرح الحدث، ولا يوجد ما يشير إلى أن الحية التي أغوت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة كانت قناعاً للشيطان. أما بعد تشكُّل ونضوج لاهوت الشيطان في القرنين السابقين للميلاد وما تلاهما، فقد عمدت الأسفار غير القانونية إلى المطابقة بين الحية والشيطان، وتشابكت قصة سقوط إبليس مع قصة سقوط الإنسان. فإبليس هو الذي تخفى في هيئة الحية وتسلل إلى الفردوس لكي ينتقم من آدم الذي كان سبب بليته وخسارة مجده السماوي. وعلى ما قرأنا في المقتبس الذي أوردناه سابقاً من كتاب حياة آدم، يقول الشيطان إنه بعد طرده مع أتباعه من مقره الأعلى إلى الأرض، لبث يندب مجده الضائع بحزن وأسى. وقد آلمه أن يرى آدم ينعم هناك بالبركة والسرور، فجاء زوجته بالخديعة وأغواها فجعلها سبب فقدانه أفراح النعيم. وفي سفر أسرار أخنوخ (أو أخنوخ الثاني) يشبك المحرر القصتين على الشكل التالي:

"وفي اليوم السادس خلق الرب الإنسان من سبعة عناصر، فجعل لحمه من تراب الأرض ودمه من الندى، وعينيه من الشمس، وعظمه من الصخر، وذكائه من الغيوم ومن سرعة الملائكة، وشعره وأوردته من عشب الأرض، وروحه من نفَس الرب ومن الريح، ودعا اسمه آدم. ثم أسكن الرب آدم في جنة زرعها على الأرض في عدن شرقاً ليرعى عهده ووصاياه، وأراه طريقين: طريق النور وطريق الظلام، وقال له هذاحسن وذاك سيئ. ومع ذلك فقد كان الخالق مطلعاً على فؤاد آدم عارفاً بطبيعته الخاطئة، فقال في نفسه: وهل بعد الخطيئة سوى الموت. ثم أوقع الرب سباتاً على آدم وأخذ من أضلاعه واحداً وخلق منه زوجاً له دعاها حواء. ولكن الشيطان تسلل إلى الفردوس وأغوى حواء وجعلها تخطئ ولكنه لم يقارب آدم([[73]](#footnote-73)).

الرواية القرآنية:

في الرواية القرآنية تتشابك قصة سقوط إبليس مع قصة سقوط الإنسان. نقرأ في سورة البقرة:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ‏» (2 البقرة: 34-37).

وفي تنويع ثانٍ على القصة يُدخل عليها عناصر جديدة، نقرأ في سورة الأعراف: «وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ‏ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (7 الأعراف: 19-24).

وفي تنويع ثالث نقرأ في سورة طه:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» (20 طه: 116-124).

تقوم الرواية القرآنية على العناصر الرئيسة لرواية سفر التكوين، ولكنها تختلف عنها في النقاط التالية:

1- المغوي في الرواية القرآنية هو الشيطان لا الحية. وهذا ما تشترك به مع الأسفار غير القانونية.

2- الشيطان لا يوسوس إلى حواء بل إلى آدم، وذلك في قوله: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ....» (20 طه: 120). وفي تنويع آخر يوسوس الشيطان إلى الزوجين معاً، وذلك في قوله: «فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ....» (7 الأعراف: 20). الأمر الذي يرفع عن حواء وزر الخطيئة الأولى.

3- لا تبادر حواء إلى الأكل من ثمر الشجرة ثم تغري زوجها بالأكل، بل إن الزوجين يأكلان منها معاً: «فَأَكَلاَ مِنْهَا....» (20 طه: 121). «....فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ....» (7 الأعراف: 22). وهنا تغيب الإشارة إلى من هو البادئ بالأكل والمحرض عليه.

4- لا يوجد في الجنة شجرتان مميزتان هما شجرة المعرفة وشجرة الحياة، بل شجرة واحدة يدعوها الشيطان شجرة الخُلد (أي الحياة الخالدة). وربما قصد النص إلى القول بأن هذا هو اسمها الحقيقي. ومن الناحية اللغوية فإن شجرة الخلد وشجرة الحياة تؤديان المعنى نفسه. وقد أكل الزوجان من شجرة الخلد. فإذا كان المعنى الباطني للأكل من الشجرة هو الفعل الجنسي على ما يذهب إليه كثير من مفسري الكتاب المقدس، فإن الخلد هنا هو خلود الجنس البشري الذي أدى إليه ذلك الفعل الجنسي الاستهلالي. وفيما عدا ذلك فإن الروايتين تشتركان في البنية العامة وفي المفاصل الرئيسة للحبكة، على ما تبينه المقارنة التالية:

| سفر التكوين |  | الرواية القرآنية |
| --- | --- | --- |
| 1- وأخذ الرب الإله آدم وأسكنه في جنة عدن... وأوصى الرب آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. |  | - «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ» (2 البقرة 35). |
| 2- فقالت الحية للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تلمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. |  | - «فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا....» (7 الأعراف 20)  «....قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى» (20 طه 120)  «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» (7 الأعراف 21) |
| 3- فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، فأخذت من ثمرها وأعطت زوجها أيضاً. |  | - «فَأَكَلاَ مِنْهَا....» (20 طه: 121) |
| 4- فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. |  | - «....فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ....» (7 الأعراف 22) |
| 5- فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فاختبأت لأني عريان. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ |  | - ....وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (7 الأعراف 22) |
| 6- وقال الرب لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذْتَ منها...  فطرد الرب الإنسان. |  | - «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ....» (20 طه 123).  «....وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (7 الأعراف 24) |
| 7- وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر،والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. |  | - ....وَقَالَ([[74]](#footnote-74)) مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (7 الأعراف 20) |

إلى هذا فقد احتوت الرواية القرآنية على أهم عنصر في الرواية التوراتية غير الرسمية، وهي استبدال الحية بالشيطان. كما احتوت على عنصر هام آخر وهو توبة آدم التي قبلها الرب: «فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (سورة البقرة). وتوبة آدم مفصلة في كتاب حياة آدم الي اقتبسنا منه في موضع سابق، وهو يحكي عن أحوال الزوجين على الأرض. فبعد طردهما من الفردوس:

"مشى الاثنان مدة تسعة أيام يبحثان عن الطعام، ولكنهما لم يجدا طعاماً يشبه ما كانا يأكلانه في الفردوس، بل طعاماً مما تأكله حيوانات الأرض. فقال آدم لحواء: لقد جعل الرب هذا الطعام نصيباً للحيوانات بينما كنا نتناول هناك طعام الملائكة. من الأفضل لنا أن نبكي أمام الرب فنستغفره، ونعلن الندم والتوبة لعله يسامحنا ويرأف بنا ويزودنا بأسباب الحياة. فقالت حواء: قل لي يا سيدي ما هو الندم؟ وكيف أستغفر؟ لكي لا يأتينا عكس مرادنا ويدير الرب وجهه عنا ولا يعير أذناً صاغية لصلاتنا. سيدي، قد يدوم استغفارك طويلاً، فأنا من جلب عليك العناء والمشقة. فقال آدم: لن يكون بمقدورك القيام بما سأقوم به، ولكن ابذلي قدر استطاعتك. سوف أصوم لمدة أربعين يوماً وأنا غاطس في مياه نهر الأردن، أما أنت فامضي إلى نهر الدجلة وخذي لك حجراً قفي عليه في وسط الماء واغطسي إلى الرقبة ثم البثي سبعة وثلاثين يوماً، والزمي الصمت لأن شفاهنا التي تنجست بالأكل من الثمرة المحرمة غير جديرة بالتوسل إلى الرب، لعله بعملنا هذا يرحمنا ويرأف بنا".

ولكن الشيطان تنكر في هيئة ملاك وضّاء وجاء إلى حواء وحال بينها وبين متابعة استغفارها، ثم قادها إلى آدم مدعياً أن الرب قد استجاب لهما. فلما رآهما آدم قادمين تعرّف على الشيطان فصرخ وانتحب وناداها قائلاً: أين ذهب ندمك واستغفارك؟ وكيف وقعتِ ثانية فريسة لإغواء عدونا الذي حرمنا مسكننا الفردوسي ومتعنا الروحانية. عند ذلك انتبهت حواء إلى خديعة الشيطان فسقطت على وجهها في التراب وصرخت في وجهه: الويل لك أيها الشيطان، لماذا تهاجمنا دون سبب؟ وما الذي فعلناه لك حتى تلاحقنا دوماً بالمكر والخديعة؟ عند ذلك قصّ عليهما الشيطان ما جرى من عصيانه أمر الخالق بالسجود لآدم، وما تبع ذلك من غضب الرب عليه وطرده من السماء. ثم يتابع النص سرد أخبار أسرة آدم وما جرى من نزاع بين قابيل وهابيل؛ وما جرى لبقية أولاد آدم إلى أن حضرته المنية. وينتهي النص بالمشهد التالي:

"ولسبعة أيام أظلمت الشمس وأظلم القمر والنجوم. وكان شيت يحتضن جسد أبيه، وحواء تشبك ذراعيها فوق رأسها المنكس والمستند على ركبتيها، وكل الأولاد يبكون بحرقة. وبينما هم على هذه الحال ظهر الملاك ميكائيل واقفاً عند رأس آدم وخاطب شيت قائلاً: انهض عن جسد أبيك وتعال لأريك ماذا أعد الرب له. فلقد رحم الرب مخلوقه وتاب عليه. وعزف الملائكة بأبواقهم وأنشدوا: مبارك أنت أيها الرب الذي أشفق على مخلوقه. عندها رأى شيت ذراع الرب تمتد فتحمل آدم وتسلمه إلى ميكائيل قائلاً له: ليكن آدم في حرز لديك إلى يوم الدينونة في آخر الزمن. عندها سأحول حزنه إلى فرح، وأجعله يتربع على عرش الذي غلبه (= الشيطان)"([[75]](#footnote-75)).

قابيل وهابيل

بعد طرد آدم وحواء من الجنة، أنجبت حواء من آدم ولدين: الأول دعي قايين (أو قابيل في الموروث الإسلامي)، والثاني دعي هابيل. وهذه قصتهما كما وردت في سفر التكوين 4: 1-13، وفي سورة المائدة: 27-31.

سفر التكوين: "وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث بعد أيام أن قابيل قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب على هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين وسقط على وجهه. فقال الرب لقايين: لماذا اغتظت، ولماذا سقطت على وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفعٌ؟ (أي إذا عملت حسناً أفلا تقبل؟).

سورة المائدة: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ»

سفر التكوين: "وكلّم قايين أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل أخاك؟ فقال: لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملتَ الأرض لا تعود تعطيك قوتها، تائهاً وهارباً تكون في الأرض. فقال قايين للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل".

سورة المائدة: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ»

القيامة والتصورات الآخروية

التصورات الآخروية، أو الإسكاتالوجيا / Eschatalogy، هي ذلك النوع من الأفكار الدينية المتعلقة بنهاية التاريخ والزمن الدنيوي، والدخول في الزمن المقدس المفتوح على الأبدية، وما يتصل بذلك من مسائل مصير الروح، والبعث، والحساب والعقاب. وسنشرع فيما يلي باستقصاء هذه التصورات في كتاب التوراة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى التجديدات التي أحدثتها الأسفار التوراتية غير القانونية، ونقارن أخيراً هذه الحصيلة مع التصورات القرآنية.

في كتاب التوراة:

تنسج التصورات التوراتية عن حياة ما بعد الموت على منوال مثيلاتها في الديانات السومرية و الرافدينية القديمة. فأرواح الموتى تهبط إلى العالم الأسفل المدعو بالعبرية شِئول، والتي ترد في الترجمات العربية بعدة صيغ؛ فهي الهاوية، والهاوية السفلى، والجب الأسفل، والحفرة السفلى. وهذه الهاوية هي أرض ظلمة وديجور لا يرى أهلها نوراً: "قد شبعَتْ من المصائب نفسي وحياتي إلى الهاوية دنت... وضعتَني في الجب الأسفل، في ظلمات في أعماق" (أيوب، 1؛ 2-22). وسكانها هم ظلال وأخْيِلة: "الهاوية من أسفلٍ مهتزة لك، لاستقبال قدومك، مُنهضةٌ لك الأخيلة". (إشعيا 14: 9). "يا رب، أفلعلك للأموات تصنع عجائب أم الأخيلة تقوم تمجدك؟" (المزمور 88: 10). والإقامة فيها أبدية، والطريق إليها لا يقود إلى خارجها: "هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد ولا يرجع بعد إلى بيته" (أيوب 7: 9-10). وأرواح الأخيار تمضي إليها مثل أروح الأشرار بما في ذلك أرواح الأنبياء. فبعد موت النبي صموئيل هبطت روحه إلى الهاوية. وعندما ضاقت نفس الملك شاؤل استعان بامرأة صاحبة جان لكي تستحضر له روح صموئيل من العالم الأسفل، وعندما فعلت وصعد صموئيل قال لشاؤل: "لماذا أقلقتني بإصعادك إياي؟ فقال شاؤل: قد ضاق بي الأمر جداً... فدعوتك لكي تعلمني ماذا أصنع" (صموئيل 28: 7-15). والهاوية مهما امتلأت لا تشبع بل تطلب المزيد: "الهاوية والهلاك لا يشبعان" (الأمثال 27: 20). هذا العالم الأسفل عبارة عن مملكة مستقلة لا سلطة لإله التوراة عليها، وأهلها لا يعرفون الرب وهو من جانبه قد نسيهم: "لأن الهاوية لا تحمدك، الموت لا يسبحك. لا يرجو الهابطون إلى الجب أمانتك، الحي هو الذي يحمدك كما أنا اليوم" (إشعيا 38: 18-19). "ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكون. أما نحن فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر" (المزمور 115: 17).

والإقامة في الهاوية ليست مقدمة لبعث الجسد الميت وعودة الروح إليه، لأن الميت يضطجع ولا يقوم على حد تعبير سفر الجامعة: "الإنسان يسلم الروح فأين هو؟ قد تنفد الحياة من البحر والنهر يجف، والإنسان يضطجع ولا يقوم" (الجامعة 14: 10-12). وموت الإنسان كموت البهيمة كلاهما يؤول إلى الفناء: "موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل. فليست للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد" (الجامعة 3: 19-20). وبالتالي فلا قيامة عامة للموتى في اليوم الأخير ولا بعث ولا نشور، أما الثواب والعقاب ففي هذه الدنيا لا في الآخرة: "مخافة الرب تزيد الأيام وسنو المنافقين تَقْصُر" (الأمثال: 10: 27). ومع ذلك نجد أيوب يتساءل عن الحكمة من سعادة الأشرار في هذه الحياة وبؤس الأخيار: "لماذا تحيا الأشرار ويشيخون؟ نعم ويتجبرون قوةً. نسلُهم قائم أمامهم وذريتهم في أعينهم وبيوتهم. آمنة من الخوف" (أيوب 21: 7-9). والفريقان يؤولان إلى نهاية واحدة، كما يتابع أيوب، فأين العدالة في ذلك: "هذا يموت في عين كماله كله مطمئن وساكن، أحواضه ملآنة لبناً ومخ عظامه طري، وذاك يموت بنفسٍ مُرةٍ ولم يذق خيراً. كلاهما يضطجعان معاً في التراب والدود يغشاهما" (أيوب 21: 23-26).

ومن الجدير بالذكر أن الهاوية كانت من الأسماء التي أطلقها النص القرآني على الجحيم. وقد ورد ذكرها مرة واحدة في سورة القارعة حيث نقرأ: «فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ» (101 القارعة: 6-11).

هذا الموقف من مسألة البعث والقيامة العامة للموتى، بقي السمة العامة للأيديولوجيا اليهودية حتى القرن الأول قبل الميلاد، عندما انقسم الربانيون اليهود إلى فرقتين هما: فرقة الصدوقيين المحافظين الذين التزموا بالتفسير الحرفي للنص وأنكروا قيامة الموتى، وفرقة الفريسيين الراديكاليين الذين قالوا بقيامة الموتى استناداً إلى شريعة مفترضة غير مكتوبة أنزلها الرب على موسى إلى جانب الشريعة المكتوبة، وجرى تداولها شفاهة عبر أجيال الحكماء. وفكرة الشريعة غير المكتوبة هذه هي التي التقطها فيما بعد حكماء التلمود وأسندوا إليها كل التجديدات التي قدموها إلى الفكر الديني. وقد بقي هذا الخلاف قائماً بين الفرقتين إلى عصر يسوع المسيح، الذي كان على خلاف مع الفريسيين ونالهم من نقده اللاذع ما لم ينله الصدوقيون، ولكنه وقف إلى جانبهم في مسألة قيامة الموتى. وفي أواسط القرن الأول الميلادي عندما قبض اليهود على بولس الرسول وقدموه للمحاكمة بتهمة خروجه في تعاليمه على الشريعة، لاحظ بولس أن قضاته ينقسمون بين فريس وصدوقي، فحاول إثارة الخلاف بين الفريقين وصاح بأعلى صوته قائلاً: "إنني فريسي ابن فريسي، وأنا أحاكم على إيماني بقيامة الموتى". فحدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين وتم تأجيل المحاكمة (العهد الجديد - أعمال الرسل: 23).

على أن غياب فكرة البعث والقيامة العامة للموتى، لم يستبعد الفكرة الأساسية الأخرى في الإسكاتالوجيا التوراتية، وهي اليوم الأخير ونهاية التاريخ. فالتاريخ ينتهي بيوم الرب الذي يدمّر العالم القديم ويفني شعوبه من أجل التأسيس لملكوت الرب. وهذا الملكوت ليس ملكوتاً سماوياً يعيش فيه الأخيار ويعاقب الفجار كما هو الحال في المسيحية والإسلام، بل هو مملكة أرضية تخلف ممالك العالم البائدة، يحكمها الإله يهوه بشكل مباشر وتكون بمثابة نعيم أرضي لبني إسرائيل. أما البقية الباقية من الأمم التي عبرت محنة اليوم الأخير فيتحولون إلى عبيد وخدم لشعب الرب.

ومجيء يوم الرب ليس بعيداً وإنما قريب إلى زمن الناس هذا: "أسكتُ قدام السيد الرب، لأن يوم الرب قريب" (صفنيا 1: 7). "آه على اليوم لأن يوم الرب قريب. يأتي من القادر على كل شيء" (يوئيل 1: 15). ويستهل يهوه يومه بصرخة الحرب المُرَّة: "قريب يوم الرب العظيم، وسريع جداً صوت يوم الرب. يصرخ حينئذٍ الجبار مُرَّاً. ذلك اليوم يوم سخطٍ، يوم ضيقٍ وشدةٍ، يوم خراب ودمار، يوم ظلام وقتام، يوم سحاب وضباب، يوم بوقٍ وهتاف على المدن المحصنة وعلى الشُّرف الرفيعة. وأضايق الناس فيمشون كالعمي لأنهم أخطؤوا إلى الرب، فيسفح دمهم كالتراب ولحمهم كالجِلَّة. لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهم في يوم غضب الرب، بل بنار غيرته تؤكل الأرض كلها لأنه يصنع فناءً باغتاً لكل سكان الأرض" (صفنيا 1: 14-18). "هو ذا الرب يخلي الأرض ويفرغها، ويقلب وجهها، ويبدد سكانها" (إشعيا 24: 1).

ويترافق هجوم يهوه مع وقوع عدد من الكوارث الكونية والطبيعية: "ولولوا لأن يوم الرب قريب، قادم كخراب من القادر على كل شيء... هو ذا يوم الرب قادم، قاسٍ بسخط وحموّ غضبٍ ليجعل الأرض خراباً ويبيد منها خُطاتها. نجوم السماء لا تُبرز نورها. تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوئه... وتتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حموّ غضبه، ويكونون كظبي طريد وكغنم بلا من يجمعها" (إشعيا 13: 6-14). "عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض... لأن ميازيب من العلاء انفتحت، وأسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقاً، تشققت الأرض تشققاً، تزعزعت الأرض تزعزعاً، وترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلدلت كالعرزال، وثقل عليها ذنبها. تسقط ولا تقوم" (إشعيا 24: 17-20). "اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، ويا أيها الشعوب أصغوا. لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل ما تُخرجه، لأن للرب سخطاً على كل الأمم، وحموّاً على جيشهم. قد حرَّمهم للذبح، فقتلاهم تُطرح وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم، ويفنى كل جند السماوات، وتلتف السماوات كدرجٍ (من ورق) وكل جندها ينتثر" (إشعيا 34: 1-5). "جماهير جماهير في وادي القضاء، لأن يوم الرب قريب في وادي القضاء، الشمس والقمر يظلمان،

والنجوم تحجز لمعانها، والرب من صهيون يزمجر، ومن أورشليم يعطي صوته فترجف السماء والأرض" (يوئيل 3: 14-16). "ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور" (زكريا 14: 6-7).

على أنقاض الأرض الخربة وأشلاء قتلى الشعوب تقام مملكة يهوه الذي يتربع على عرشه ملكاً في جبل صهيون: "ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء وملوك الأرض على الأرض... ويُجمعون كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس. ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون. ويخجل القمر وتخزى الشمس، لأن رب الجنود قد ملكَ في جبل صهيون وقُدام شيوخه قد مُجّد" (إشعيا 24: 21-23). "الرب قد ملكَ. لبس الجلال، لبس القدرة ائتزر بها" (المزمور 93: 1). "الرب قد ملكَ. ترتعد الشعوب. هو جالس على الكروبيم. تتزلزل الأرض" (المزمور 99: 1). وفي المقتبس الأخير إشارة إلى عرش يهوه الذي تحمله ملائكة الكروبيم، وهم كائنات مجنحة لها وجه إنساني وجسد يحمل سمات الثور والأسد.

بعد أن يتحقق ملكوت الرب يدعو يهوه إليه شراذم شعبه من كل مكان ويريحهم في أرضهم إلى الأبد، ثم يسوق إليهم من بقي من الشعوب ليكونوا عبيداً لهم: "ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه... ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض.." (إشعيا 11: 11-12). "لأن الرب يرحم يعقوب ويختار إسرائيل ويريحهم في أرضهم، فتقترن بهم الغرباء، وينضمون إلى بيت يعقوب، ويأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم، ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وإماءً، ويسبون الذين سبوهم ويتسلطون على ظالميهم" (إشعيا 14: 1-2). "قومي استنيري (يا أورشليم) لأنه قد جاءك نورك ومجد الرب أشرق عليك. لأنه هاهي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب، ومجده عليكِ يُرى، فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك... وبنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين، وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك" (إشعيا 60: 1-3 و 14).

بعد ذلك تدخل الأرض في حالة فردوسية: "فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل، والشبل والمُسَمَّنُ معاً وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبَّة ترعيان تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سَرَبِ الصِّلّ ويمد الفطيم يده على جُحرِ الأفعوان، لا يسوؤون ولا يُفسدون في كل جبلٍ قدسي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر" (إشعيا 11: 6-9). "لا ترفع أمةً على أمةٍ سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد، بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته... ويملك الرب عليهم في جبل صهيون من الآن إلى الأبد" (ميخا 4: 3-7).

على الرغم من هذا الموقف اللاهوتي الواضح من مسألة البعث والحساب، إلا أن بعض محرري الأسفار التوراتية تركوا لنا إشارات قليلة وغامضة عن قيامة الأموات، فتحت الباب فيما بعد لمؤلفي الأسفار غير القانونية للتوكيد تدريجياً على هذه المسألة، ومن ثم إلى صياغة لاهوت متكامل بخصوصها. من ذلك مثلاً ذلك الموقف الحائر الذي يبديه مؤلف سفر الجامعة من مصير الروح: "من يعلم، روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق؟ وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل الأرض؟" (الجامعة 3: 21). وما ورد في سفر دانيال: "وفي ذلك الوقت (= اليوم الأخير) يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت... وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي". ومن المعروف أن سفر دانيال هو آخر الأسفار القانونية، ويرجع تاريخ تدوينه إلى القرن الثاني قبل الميلاد، أي إلى الفترة التي بدأت فيها الأسفار غير القانونية بالظهور. وكما نلاحظ من قول محرر السفر: "وكثيرون من الراقدين ...إلخ" أن اللاهوت التوراتي الرسمي لم يحسم أمره بخصوص القيامة العامة حتى هذا الوقت المتأخر.

في الأسفار غير القانونية:

يقدم لنا سفر عزرا الرابع عدداً من التصورات الآخروية التي أسست للاهوت البعث والقيامة في الفكر الديني اليهودي. يعود تاريخ تأليف النص العبري المفقود لهذا السفر إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وقد وجدت له ترجمات إلى اللغات اليونانية واللاتينية والأثيوبية والقبطية والأرمنية، إضافة إلى ترجمتين عربيتين محفوظتين بمكتبة الفاتيكان. والترجمة اللاتينية هي أكمل الترجمات وهي المعتمدة من قبل الباحثين اليوم.

في مدينة بابل التي سبق إليها عزرا مع مسبيي يهوذا، تعرِض له عدة رؤى متتابعة. في الرؤيا الأولى يطرح عزرا على ربه عدداً من التساؤلات التي تتعلق بأصل الشر في العالم ومصير إسرائيل والبشرية، فيقول له الرب عن طريق الملاك أوريئيل أنه في البداية لم يفرض على آدم إلا وصية واحدة فقط، ومع ذلك لم يكن أهلاً للالتزام بها، فأخطأ وحكم الرب عليه وعلى ذريته بالموت. وعن آدم نشأت شعوب وأمم كثيرة مشوا وراء أفكارهم وأداروا ظهرهم للرب، فأهلكهم بطوفان عظيم وأنجى نوحاً وأهله. ولكن أمم ما بعد الطوفان لم تكن بأحسن حالاً من سابقاتها، بل لقد فجرت وضلت أكثر منها. ولذا فقد اختار الرب إسرائيل شعباً خاصاً له وأعطاه الشريعة لتهديه، ولكن إسرائيل ضلت عن السبيل وعاشت بذرة الخطيئة التي زُرعت في قلب آدم مع الشريعة جنباً إلى جنب. ثم ذهب الخير واستقر الشر في القلوب، فآلت إسرائيل إلى الخراب وإلى الدمار.

ينظر عزرا حوله ويرى أن خطيئة بابل وبقية الأمم لم تكن أقل من خطيئة إسرائيل، فلماذا حُم القضاء عليها وحدها بينما ترتع بقية الأمم بالثراء والدعة وتُكافأ على شرها؟ فيقول له الملاك أوريئيل بأن فهمه قاصر عن استيعاب ما يجري في العالم، لأن أسبابه كامنة وراء ما يبدو للعيان من ظواهر، وطرق الله خفية على البشر. ثم يكشف له عن مجيء ساعة قريبة يحصد فيها من زرع بذرة الشر محصوله، ويحصد من زرع بذرة الخير محصوله. وهذه الساعة تحل في موعد محسوب لا يتقدم ولا يتأخر. فكما أن رحم المرأة لا يستطيع الاحتفاظ بالجنين إذا أتاها المخاض، كذلك هي الأرض التي أُتخمت بالموتى منذ بدء الخليقة ولكنها لا تلفظهم قبل حلول مخاضها في اليوم الأخير.

ولتلك الساعة علاماتها. ففي ذلك اليوم يتملك الناس ذعر عظيم، وتغيب سبُل الحق ويُفقد الإيمان. الشمس تشرق في الليل والقمر يطلع في النهار. النجوم تغيّر مجراها وتتساقط على الأرض. الدم ينبثق من الأشجار، والصخر يتكلم ويُسمع صوته. تتشقق الأرض عبر المفازات الواسعة، وتندلع نيران لاهبة لا تنطفئ. تترك الطيور أعشاشها، والكواسر تهجر مقراتها، والبحر يلفظ أحياءه. تحمل النساء مسوخاً، وابن السنة يتكلم، والحوامل تضع في ثلاثة أو أربعة أشهر. تجف الحقول وتفرغ الإهراءات، ويختلط ماء الأرض الحلو بمائها المالح. يقوم الأصدقاء والإخوة ضد بعضهم ويتقاتلون بضراوة. يُفقد الرشد والتفكير السليم، وتنسحب الحكمة إلى مخبئها فلا يجدها أحد. عمل الناس لا يعطي ثماره وكدهم يذهب هباءً.

بعد ذلك ينقل الرب لعزرا عن طريق الملاك خبر مملكة المسيح القادمة على الأرض:

"هو ذا يوم يأتي بعد ظهور الإشارات التي أخبرتك بها، فتظهر المدينة التي لا أثر لها الآن، ويُكشف عن الأرض غير المنظورة الآن. عندها سيرى كل من نجا من تلك الكوارث التي أخبرتك بها عجائبي. عندها سوف يظهر المسيح ابني والذين معه، وينعم الذين نجوا مدة أربعمئة سنة. ثم يموت المسيح وكل ذي نسمة معه، ويعود العالم إلى الصمت الذي كان عليه قبل البدايات لمدة سبعة أيام. بعد ذلك يستيقظ العالم النائم ويتلاشى منه ما هو قابل للفساد... سوف تلفظ الأرض الأجساد النائمة في باطنها، وتُخرج ردهات المطهر ما عُهد إليها من أرواح، ويظهر العلي مستوياً على عرش الدينونة. عندها تزول الرحمة ويغيب الصبر ويبقى الحساب. عندها ينزرع الحق وينمو البر، يصحو الخير ولا ينام الصلاح، ويُعرض الثواب والعقاب. عندها تبرز هاوية العذاب ويبرز في مقابلها مقام النعيم. يُكشف عن أتون الجحيم ويظهر في مقابله الفردوس المقيم. عندها يقول العلي للأمم التي بعثت من الموت: انظروا إلى الذين أنكرتم وصاياه، ثم انظروا إلى هذه الجهة وإلى تلك. هنا السكينة والنعيم وهناك العذاب والجحيم. هذا ما يقوله العلي في يوم الدينونة، يوم لا شمس فيه ولا قمر ولا نجوم، لا سحاب ولا رعد ولا برق ولا ريح ولا هواء ولا ماء، لا صباح ولا مساء، لا صيف ولا ربيع، لا حرّ ولا صقيع، لا وابل ولا ندى، لا ظُهر ولا مغرب، لا فجر ولا إشراقة نور. وحده مجد العلي يتلألأ"([[76]](#footnote-76)).

عقب ذلك يقول عزرا للملاك: إن الفئة الناجية هم قلة، والهالكون هم الكثر، لأن الشر المزروع في النفس الإنسانية قد حرف جُلَّ البشر عن طرق الله. فيجيبه الملاك: إن الحصى في الأرض أكثر من الرصاص، والرصاص أكثر من الحديد، والحديد أكثر من النحاس، والنحاس أكثر من الفضة، والفضة أكثر من الذهب، لأن الثمين في الأرض هو القليل والنادر. وهذا هو شأن طبقات البشر. لقد خُلق العالم من أجل الكثيرين، ولكن القلة هي المعدة للخلاص ولوراثة العالم القادم.

ولدينا في سفر أخنوخ الأول وصف مسهب لمجريات اليوم الأخير. وقد عثر على مقاطع من هذا السفر ضمن مخطوطات البحر الميت، الأمر الذي يدل على أن زمن تأليفه لا يتعدى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وعلى الرغم من العثور على مقاطع متفرقة منه باللغتين اليونانية واللاتينية، إلا أن النص الكامل متوفر فقط باللغة الأثيوبية. والنص طويل ومليء بالتفاصيل، ولذلك سوف نكتفي فيما يلي بإيراد بعض الملخصات التي تحتوي على أفكار ذات صلة بموضوعنا.

ففي ذلك اليوم ستعيد الأرض أمانتها وتعيد الهاوية ما أخذته إليها. وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحد إنقاذ نفسه مقابل ذهب أو فضة من أهوال الساعة ومن مجلس القضاء. سيتجابه الآباء والأبناء والإخوة ويقتلون بعضهم من الفجر إلى المغيب، ولن يتردد الأب في أن يمد يده على ابنه ليقتله. الأمهات يلقين أطفالهن عن صدورهن، والمرضعات يتركن رضائعهن، والحوامل يجهضن. وبعد انتهاء أهوال الساعة سيبعث الأموات من قبورهم، والذين هلكوا في الصحراء، والذين غرقوا في الأنهار، والذين ابتلعتهم أسماك البحر، سيعودون ويقفون للحساب أمام رب الأرواح الذي يجلس على عرشه وكتب الأحياء مفتوحة أمامه، ومجلس ملائكته منعقد لكي يشهدوا إحقاق الحق وإقامة العدل. في تلك الكتب دونت أعمال البشر كلها منذ الجيل الأول وحتى الجيل الأخير. عند ذلك توزن أعمال البشر بالميزان، والمخطئون يساقون من قبل الملائكة ويلقون في هوة عميقة تتأجج فيها النيران، ومهما وفد إليها من الناس لا تمتلئ، وفيها أدوات التعذيب وسلاسل حديدية يُغل بها أتباع عزازيل. عندها سيتوسلون من أجل بعض الراحة، ويلتمسون من ملائكة العذاب أن يعيدوهم إلى الحياة فيؤمنوا ويمجدوا ويسبحوا الرب، فيقول لهم رب الأرواح بأن مصيرهم قد تقرر والأمر والقضاء بحقهم قد صدر. أما الأبرار والمختارون فسيُنقذون في ذلك اليوم ولن يروا بعد ذلك وجه الخطأة والأشرار، وتحت عناية رب الأرواح سوف يأكلون وينامون ويقومون إلى الأبد، يرتدون عباءات المجد وثياباً لا تبلى، وجوههم تشع نوراً، وشفاههم تمجد رب الأرواح([[77]](#footnote-77)).

وفي نص الهاجاداه لدينا وصف للجنة والجحيم يرد في سياق أعمال الخلق التي قام بها الرب في مطلع الزمن، عندما خلق سبع سماوات طباقاً تتدرج من السماء الأولى التي تستند حوافها الخارجية إلى الأرض عند الجهات الأربعة، وصولاً إلى السماء السابعة التي تتصل بيدي الخالق. وخلق سبع أرضين أيضاً يفصل بين كل أرض وأخرى سبع طبقات فرعية. وقد جعل الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض، وقسّمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الخطأة على قدر ذنوبهم، وقسّم الدرجة إلى سبعة أجنحة والجناح إلى سبعة آلاف كهف والكهف إلى سبعة آلاف حجرة. وهنالك أنهار من حمم تجري في كل مكان وأنهار من إسفلتٍ وقطران تغلي وتضطرم. وهنالك خمسة أنواع من النيران وقودها قطع من الفحم كل قطعة بحجم جبل. وهنالك ملائكة العذاب موزعون في كل مكان. وجعل الفردوس في الجهة الشرقية من الأرض، وقسّمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الصالحين على قدر صلاحهم. وجعل للفردوس بوابتين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل واحد من أهل النعيم إلى البوابة، استقبلوه ونضوا عنه حِلّة القبر وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلاً من لآلئ وأحجار كريمة وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائم فيه أشجار من كل نوع وأنهار جارية من لبن وخمر وعسل، وشجرة الحياة التي تثمر سبعة عشر نوعاً لكل نوع مذاق ورائحة. ولكل واحد من أهل الفردوس ظُلّة يجلس تحتها وأمامه منضدة مصنوعة من أحجار كريمة يقوم على خدمتها ستون ملاكاً يقولون له: كل من هذا العسل واشرب من هذه الخمرة لأنك جاهدت في دراسة التوراة. وليس في الفردوس نور يأتيه من خارجه، بل إن نوره مستمد من ضياء وجوه الصالحين الذين تبدلت هيئاتهم فصار أقبحهم يضاهي يوسف في الحسن والجمال([[78]](#footnote-78)).

الإسكاتالوجيا القرآنية:

تعالج الإسكاتالوجيا القرآنية أربعة موضوعات رئيسة سوف نعرضها فيما يلي، وهي: الساعة، والبعث، والحساب، الثواب والعقاب.

الساعة:

«....وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (42 الشورى: 17)

«إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً» (70 المعارج: 6-7)

«بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ» (21 الأنبياء: 40)

«يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ....» (21 الأنبياء: 104)

«مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» (36 يس: 49-50)

«فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا....» (69 الحاقة: 13-17)

«وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً» (25 الفرقان: 25)

«....وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ....» (39 الزُمر: 67)

«يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً» (73 المزمل: 14)

«إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً» (56 الواقعة: 4-6)

«إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا» (99 الزلزلة: 1-2)

«إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ .... وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ» (84 الانشقاق: 1-4)

«يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً» (53 الطور: 9-10)

«يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ» (70 المعارج: 8-9)

«فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ» (75 القيامة: 7-10)

«وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ» (77 المرسلات: 9-14)

«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ .... .... وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ» (81 التكوير 1-14)

«يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22 الحج: 2)

«وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً‏ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْويهِ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ» (70 المعارج: 10-14)

«لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ....» (60 الممتحنة: 3)

«يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (26 الشعراء: 88-89)

«يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (80 عبس: 34-37)

«وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً» (25 الفرقان: 25-26)

«كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً» (89 الفجر: 21-22)

«....قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ....» (6 الأنعام: 73)

«يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» (40 غافر: 16)

«....وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» (69 الحاقة: 17)

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ....» (40 غافر: 7)

البعث والقيامة العامة:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ» (23 المؤمنون: 15-16)

«وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» (16 النحل: 38)

«زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ....» (64 التغاين: 7)

«وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (36 يس: 78-79)

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ» (79 الزمر: 68)

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» (36 يس: 51-52)

«يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ‏» (70 المعارج: 43-44)

الحساب ومجلس القضاء:

«يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ....» (78 النبأ: 38-39)

«....وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (18 الكهف: 47-49)

«وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» (82 الانفطار: 10-12)

«يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ‏» (99 الزلزلة: 6-8)

«وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً....» (21 الأنبياء: 47)

«وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم....» (7 الأعراف: 8-9)

«فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ» (101 القارعة: 6-11)

«وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17 الإسراء: 13-14)

«وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً» (78 النبأ: 28-29)

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ.... .... فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ .... .... .... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ» (69 الحاقة: 19-25)

«وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» (39 الزمر: 69)

«وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (39 الزمر: 75)

الثواب والعقاب:

«وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» (26 الشعراء: 90-91)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (66 التحريم: 6)

«وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ» (15 الحجر: 43-44)

«وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا....» (39 الزمر: 71)

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ» (50 ق: 30)

«سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى» (87 الأعلى: 10-13)

«....وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ» (14 إبراهيم: 17)

«....لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا....» (35 فاطر: 36)

«....فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا....» (22 الحج: 19-22)

«إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً» (76 الإنسان: 4)

«إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (40 غافر: 71-72)

«خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ» (69 الحاقة: 30-32)

«خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً» (33 الأحزاب: 65)

«وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ.... فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ» (35 فاطر: 37)

«وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ .... فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ....» (32 السجدة: 12-14)

«وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً.... .... وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (39 الزمر: 70-73)

«سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ....» (57 الحديد: 21)

«....يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً» (18 الكهف: 31)

«عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ» (37 الصافات: 44-49)

«وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ .... وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ» (52 الطور: 22-24)

«....فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ....» (47 محمد: 15)

المقارنة:

| في التوراة بشقيها |  | في القرآن |
| --- | --- | --- |
| 1- ولولوا لأن يوم الرب قريب. (صفنيا). |  | - «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً» (70 المعارج: 6-7) |
| 2- ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت. (دانيال) |  | - «....وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً». (25 الفرقان 26) |
| 3- يصنع فناءً باغتاً لكل سكان الأرض.(صفنيا) |  | - «بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ....» (21 الأنبياء 40) |
| 4- هو ذا الرب يخلي الأرض ويبيد سكانها. (إشعيا) |  | - «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ....» (39 الزُمر 68) |
| 5- الشمس والقمر يظلمان، والنجوم تحجب لمعانها (يوئيل). والدراري تنقبض (زكريا). |  | - «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» (81 التكوير 1).  - «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» (75 القيامة: 7-9). |
| 6- النجوم تغير مجراها وتتساقط على الأرض (عزرا الرابع). |  | - «وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ» (81 التكوير 2).  - «وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ» (82 الانفطار 2). |
| 7- وأُسس الأرض تزلزلت. تزعزعت الأرض تزعزعاً وترنحت مثل السكران (إشعيا). |  | - «إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا» (99 الزلزلة 1).  - «إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً» (56 الواقعة 4). |
| 8- سوف تلفظ الأرض الأجساد الثاوية فيها (عزرا الرابع). في ذلك الوقت ستعيد الأرض أمانتها (أخنوع الأول). |  | - «وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا» (99 الزلزلة 2).  - «وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ». (84 الإنشقاق 3-4). |
| 9- وتلتف السماوات كدرج (إشعيا). |  | - «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ....» (21 الأنبياء 104).  - «....وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ....» (39 الزمر 67). |
| 10- لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهم في يوم غضب الرب(صفنيا). |  | - «يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (26 الشعراء 88-89). |
| 11- يقوم الأصدقاء والأخوة ضد بعضهم ويتقاتلون (عزرا الرابع). |  | - «وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً‏ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ» (70 المعارج: 10-12).  - «لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ....» (60 الممتحنة: 3). |
| 12- الأمهات يلقين أطفالهن عن صدورهن، والمرضعات يتركن رضائعهن، والحوامل يجهضن (أخنوخ الأول). |  | - «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا....». (22 الحج 2). |
| 13- الرب قد ملك. لبس الجلال. لبس القدرة (المزمور 93). |  | - «....لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار» (40 غافر 16). |
| 14- ويظهر العلي مستوياً على عرش الدينونة (عزرا الرابع). الرب قد ملك، ترتعد الشعوب. وهو جالس على الكروبيم (المزمور 99). |  | - «....وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» (69 الحاقة 17). |
| 15- سيبعث الأموات من قبورهم، والذين هلكوا في الصحراء، والذين غرقوا في الأنهار، والذين ابتلعتهم الأسماك، سيعودون.(أخنوخ الأول) |  | - «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ» (23 المؤمنون: 16)  - «....قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ....» (36 يس 78-79). |
| 16- ويقفون أمام رب الأرواح الذي يجلس على عرشه، وكُتب الأحياء مفتوحة أمامه، ومجلس ملائكته منعقد لكي يشهدوا إقامة العدل (أخنوخ الأول). |  | - «وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً» (89 الفجر: 22).  - «وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ....» (39 الزمر 75)  - «وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ.... وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ....» (39 الزمر 69). |
| 17- عند ذلك توزن أعمال البشر بالميزان (أخنوخ الأول). |  | - «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ....» (21 الأنبياء 47). |
| 18- عندها تبرز هاوية العذاب، ويبرز في مقابلها مقام النعيم (عزرا الرابع). |  | - «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» (26 الشعراء 90-91). |
| 19- والمخطئون يساقون من قبل الملائكة ويُلقون في هوة عميقة تتأجج فيها النيران. |  | - «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ....» (39 الزمر 71).  - «تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً» (88 الغاشية 4). |
| 20- ومهما وفد إليها من الناس فإنها لا تمتلئ (أخنوع الأول). الهاوية والهلاك لا يشبعان (الأمثال). |  | - «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ» (50 ق 30). |
| 21- وجعل الرب الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض وقسمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الخطأة وفق ذنوبهم. وهناك ملائكة العقاب موزعون في كل مكان (الهاجاده). |  | - «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ» (15 الحجر 43-44).  - «....عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ....» (66 التحريم: 6). |
| 22- وفيه أدوات التعذيب وسلاسل حديدية يُغَلّ بها أتباع عزازيل. |  | - «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً» (76 الإنسان: 4).  - «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ» (69 الحاقة 30-32). |
| 23- عندها يتوسل الأشرار لكي يعادوا إلى الحياة مجدداً لكي يؤمنوا بالرب ويسبحوه. فيقول لهم رب الأرواح بأن الحكم قد صدر بحقهم ولا رجعة فيه (أخنوخ الأول). |  | - «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ.... فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ» (35 فاطر 37). |
| 24- وجعل الرب الفردوس في الجهة الشرقية من الأرض وقسّمه إلى سبع درجات... وجعل له بوابتين عليهما ملائكة الرحمة الذين يستقبلون أهل النعيم ويلبسونهم عباءات من سحاب المجد ويضعون على رؤوسهم أكاليل من لآلئ (الهاجاداه). |  | - «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (39 الزمر 73).  - «....يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ....» (18 الكهف 31). |
| 25- ثم يقتادونهم إلى مكان ربيع دائم وأنهار جارية من لبن وخمر وعسل (الهاجاداه). |  | - «....فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى....» (47 محمد: 15) |
| 26- فيه أشجار من كل نوع وشجرة الحياة التي تثمر سبعة عشر نوعاً لكل نوع مذاق ورائحة (الهاجاداه). |  | - «....وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ....» (47 محمد: 15) |
| 27- وليس في الفردوس نور يأتيه من خارجه (الهاجاداه). |  | - «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ» (56 الواقعة 27-30).  - «....لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً» (76 الإنسان 13). |
| 28- بل إن نوره مستمد من ضياء وجوه الصالحين(الهاجاداه). وجوه الأبرار في الجنة تشع نوراً (1أخنوخ) |  | - «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ....» (57 الحديد 12) |
| 29- ولكل واحد من أهل الفردوس ظُلَّة يجلس تحتها، وأمامه منضدة من حجر كريم يقف لخدمتها ستون ملاكاً يقولون له تناول من هذا العسل واشرب من هذا الخمر (الهاجاداه). |  | - «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ» (52 الطور: 24)  - «بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ» (56 الواقعة 18-21). |

هذه هي أبرز وجوه التشابه بين الإسكاتولوجيا التوراتية والإسكاتولوجيا القرآنية. ولقد كان باستطاعتنا التوسع في المقارنة أكثر من هذا لو كنا قد قدمنا كل ما ورد لدى الجانبين من تصورات آخروية واقتبسنا من الأسفار غير القانونية أكثر مما فعلنا. ولكننا لم نجد فائدة ترجى من ذلك، وآثرنا الاختصار والتركيز على أهم العناصر في تلك التصورات.

1. - والاسم مأخوذ من الحكاية التي تقول إن اثنين وسبعين يهودياً من علماء التوراة قد اجتمعوا لترجمة الكتاب إلى اليونانية، فقبعوا كل واحد في غرفة مغلقة مدة 72 يوماً أنهوا خلالها الترجمة. وعندما جرت مقارنة الاثنين والسبعين ترجمة على بعضها وُجدت متطابقة تماماً، الأمر الذي يدل على أن النص هو كلمة الله الموحاة.. [↑](#footnote-ref-1)
2. - هذه الإطلالة على تاريخ النص العبري للتوراة وترجماته القديمة تعتمد الفصل الرابع من كتاب:

   - John Allegro, The Dead Sea Scrolls, Penguin Books, 1966.. [↑](#footnote-ref-2)
3. - J. H. Charlesworth, edt, The Old Testament Pseudepigrapha, Doubleday, New York, 1983. [↑](#footnote-ref-3)
4. - صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي، ج 5. [↑](#footnote-ref-4)
5. - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 299. [↑](#footnote-ref-5)
6. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 72. [↑](#footnote-ref-6)
7. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 20. [↑](#footnote-ref-7)
8. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 17. [↑](#footnote-ref-8)
9. - ابن النديم: الفهرست، طبعة طهران، ص 30. [↑](#footnote-ref-9)
10. - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 62 [↑](#footnote-ref-10)
11. - البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن. وأيضاً السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 57. [↑](#footnote-ref-11)
12. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 58. [↑](#footnote-ref-12)
13. - ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، ج 3، ص 211. [↑](#footnote-ref-13)
14. - الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله. دمشق مجمع اللغة العربية، ص 13. [↑](#footnote-ref-14)
15. - الشعبي: معرفة القراء الكبار، 1 ص 27. [↑](#footnote-ref-15)
16. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 16. [↑](#footnote-ref-16)
17. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 26. [↑](#footnote-ref-17)
18. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 95-97. [↑](#footnote-ref-18)
19. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 94. [↑](#footnote-ref-19)
20. - ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص 26. [↑](#footnote-ref-20)
21. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 142. [↑](#footnote-ref-21)
22. - ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص 26. [↑](#footnote-ref-22)
23. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 143. [↑](#footnote-ref-23)
24. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 143. [↑](#footnote-ref-24)
25. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 144. [↑](#footnote-ref-25)
26. - صحيح مسلم، طبعة مصر، ج 4، ص 167. [↑](#footnote-ref-26)
27. - ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت ص 310. [↑](#footnote-ref-27)
28. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 58. [↑](#footnote-ref-28)
29. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-29)
30. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-30)
31. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-31)
32. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-32)
33. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 65. [↑](#footnote-ref-33)
34. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-34)
35. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-35)
36. - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25. [↑](#footnote-ref-36)
37. - السيوطي: الدر المنثور، طبعة قم، ج 5، ص 96. [↑](#footnote-ref-37)
38. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 93. [↑](#footnote-ref-38)
39. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 92. [↑](#footnote-ref-39)
40. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 60-61. [↑](#footnote-ref-40)
41. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 64-65. [↑](#footnote-ref-41)
42. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 66-67. [↑](#footnote-ref-42)
43. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 86-87. [↑](#footnote-ref-43)
44. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 98-100. [↑](#footnote-ref-44)
45. - مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، ج 1، ص 419. [↑](#footnote-ref-45)
46. - تفسير الطبري، ج 1، ص 25. [↑](#footnote-ref-46)
47. - تفسير الطبري، ج 1، ص 21. [↑](#footnote-ref-47)
48. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 26 و 43-44. [↑](#footnote-ref-48)
49. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 26. [↑](#footnote-ref-49)
50. - السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 16. [↑](#footnote-ref-50)
51. - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 302. [↑](#footnote-ref-51)
52. - مكي بن أبي طالب: الإبانة عن معاني القراءات، دمشق ص 79. [↑](#footnote-ref-52)
53. - S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Row, New york, 1961, ch. 2.

    - S. N. Kramer, The Sumerian, The University of Chicago Press, 1963, ch. 4. [↑](#footnote-ref-53)
54. - J. Viaud, Egyptian Mythology. In: Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London, 1977, PP. 11-16.. [↑](#footnote-ref-54)
55. - من أجل النص الكامل لأسطورة التكوين البابلية، ومراجعه، انظر كتابي (مغامرة العقل الأولى)، فصل التكوين البابلي. [↑](#footnote-ref-55)
56. - (= تعب). [↑](#footnote-ref-56)
57. - Willis Barnston, The Other Bible, Harper, Newyork, 1980, PP. 16-19. [↑](#footnote-ref-57)
58. - S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper, New york, 1961. [↑](#footnote-ref-58)
59. - Stephaie Dally. Mesopotamian Myths and Epics, Oxford, 1999. [↑](#footnote-ref-59)
60. - Alexander Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix, Chicago, 1970. [↑](#footnote-ref-60)
61. - راجع كتابي: مدخل إلى نصوص الشرق القديم، فصل ملحمة كرت. [↑](#footnote-ref-61)
62. - Willis Barnstone, The Other Bible, Harper – Collins, New York, 1980, PP. 15 FF. [↑](#footnote-ref-62)
63. - لمزيد من الاطلاع على لاهوت الشيطان في الزرادشتية، راجع مؤلفي " الرحمن والشيطان" فصل ميلاد الشيطان.. [↑](#footnote-ref-63)
64. - بخصوص رشف ودبير راجع:

    - W. F. Allbright, Yahweh and the Gods of Canaan, Anchor, 1969, pp. 186, 139-140. [↑](#footnote-ref-64)
65. - المقتبسات التي أوردها هنا من سفر أخنوخ هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية:

    - J. H. Charlesworth, edt, The Old Testament Pseudepigrapha, New York, 1983. vol. 1, p. 13 ff. [↑](#footnote-ref-65)
66. - هذه المقتبسات من اليوبيليات هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 75 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-66)
67. - من ترجمتي عن المرجع السابق، المجلد الأول، ص 148. [↑](#footnote-ref-67)
68. - من ترجمتي عن المرجع السابق، المجلد الثاني ص 262. [↑](#footnote-ref-68)
69. - Willis Barnstone, edt, The Other Bible, Harper, New York, 1984, p.30. [↑](#footnote-ref-69)
70. - موسوعة الأسفار غير القانونية، المجلد الأول، ص 700-701. [↑](#footnote-ref-70)
71. - عن ترجمة الدكتور الخوري بولس الفغالي: كتابات قمران، الرابطة الكتابية، بيروت 1997، ص 29-30. [↑](#footnote-ref-71)
72. - (= جهنم). [↑](#footnote-ref-72)
73. - راجع سفر أسرار اخنوخ في:

    - Willis Barnstone, edt, The Other bible, Harper, New York, 1984. [↑](#footnote-ref-73)
74. - (لهما الشيطان). [↑](#footnote-ref-74)
75. - هذه المقاطع والملخصات هي من ترجمتي عن كتاب حياة آدم. راجع موسوعة الأسفار غير القانونية:

    - J. H. Charlesworth, edt, The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 2, p.258 ff.. [↑](#footnote-ref-75)
76. - هذه المقاطع والملخصات من سفر عزرا الرابع هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية:

    - J. H. Charlesworth, The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 1, pp. 525 ff.. [↑](#footnote-ref-76)
77. - هذه الملخصات من سفر أخنوع الأول، عن المرجع السابق الصفحة 36 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-77)
78. - من ترجمتي وتلخيصي عن:

    - Willis Barnstone, The Other Bible, Harper, New York, 1984, pp. 16-20. [↑](#footnote-ref-78)